مقاصد الدعوة الإسلامية

دراسة تأصيلية

إعــداد

دكتور: أيمن فايز كمال عطا الله

الأستاذ المساعد بقسم الثقافة الإسلامية

بكلية الدعوة الإسلامية، جامعة الأزهر

البريد الإلكتروني:aymanatalla.١٣@azhar.edu.eg

(١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م)

ملخص البحث

مقاصد الدعوة الإسلامية دراسة تأصيلية

أيمن فايز كمال عطاالله

قسم الثقافة الإسلامية، كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة، جامعة الأزهر الشريف، مدينة نصر، جمهورية مصر العربية.

البريد الإلكتروني:aymanatalla.13@azhar.edu.eg

أُعدَّ هذا البحث بغرض التأصيل لمقاصد الدعوة الإسلامية وأهدافها الكبرى، وبيان ما بين تلك المقاصد الدعوية ومقاصد الشريعة الإسلامية- بدلالتها الاصطلاحية- من وجوه التمايز. وقد انتهى البحث إلى تقسيم مقاصد الدعوة الإسلامية إلى ثلاث مجموعات رئيسة: المقاصد المعرفية، والمقاصد الوجدانية، والمقاصد الاجتماعية، اشتملت كل مجموعة منها على عدة مقاصد خاصة بها. هذا وقد عرض البحث لبيان المراد من كل مقصد من تلك المقاصد في إطاره الدعوي، كما أنه ختم الحديث عن كل مقصد ببيان أهم العناصر والمحاور التي يمكن عن طريقها تحقيق ذلك المقصد وتطبيقه في الواقع الدعوي؛ وذلك كله بغرض ضبط مسيرة الخطاب الإسلامي، وتحديد أولوياته الثابتة، واتحاد كلمة العاملين للإسلام ما أمكن. وقد اعتمدت في البحث المنهج التكاملي بما يستلزمه من:(استقراء- تحليل- واستنباط).

ومما توصل إليه البحث من نتائج: انفراد الدعوة الإسلامية بمقاصد تُميّزها عن مقاصد الشريعة الإسلامية بدلالتها الاصطلاحية، وتنوع مقاصد الدعوة الإسلامية واتساع مجالاتها لتشمل: الديني والدنيوي، الفردي والجماعي، المادي والروحي....، وإفساح المقاصد الدعوية المجال أمام دعاة الإسلام لتطوير الوسائل، وتجديد الآليات؛ حيث جاء النص على المبادئ العامة والأهداف الكلية دون التعرض بحديث مفصل عن الوسائل، نظرًا لتغيرها بتغير عصورها وظروفها، وهو ما يبرهن على مرونة الإسلام وفاعليته.

كما أوردت بخاتمة البحث عده توصيات منها: ضرورة إفراد مقاصد الدعوة الإسلامية بمادة مستقلة بالكليات الشرعية بالأزهر الشريف، لاسيما كلية الدعوة الإسلامية، وتخصيص دراسة تُعنى برصد الجهود التي بذلت – عبر التاريخ الفكري والدعوي – لوضع الأصول الفكرية التي تجمع كلمة العاملين للإسلام، وينتظم تحت مظلتها سعيهم، بدءًا من أبي الحسن الأشعري، وانتهاء بوثيقة الأزهر الشريف للتجديد.

الكلمات المفتاحية: (مقاصد- الدعوة- الإسلامية- دراسة- تأصيلية)

Abstract

The purposes of the Islamic call, a fundamental study

Ayman Fayez Kamal Atallah

Department of Islamic Culture, College of Islamic Call in Cairo, Al-Azhar University, Nasr City, Arab Republic of Egypt.

This research was prepared for the purpose of rooting for the purposes of the Islamic call and its major objectives, and to show the difference between those purposes of advocacy and the purposes of Islamic law – with its idiomatic meaning – from the aspects of distinction. The research concluded by dividing the objectives of the Islamic call into three main groups: cognitive objectives, emotional objectives, and social objectives.

Each group contained several purposes of its own. This research was presented to clarify the intent of each of these purposes in its advocacy framework, and it concluded the discussion of each intent with a statement of the most important elements and axes through which that intent can be achieved and applied in the advocacy reality; All this is for the purpose of controlling the course of the Islamic discourse, defining its fixed priorities, and uniting the word of those working for Islam as much as possible. In the research, the integrative approach was adopted, including what it entails: (extrapolation – analysis – and deduction).

Keywords: (purposes – advocacy – Islamic – study – analytical)

******

المقدمـــــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير رسل الله أجمعين، وبعد :

فإن العلوم الإسلامية، والمعارف الشرعية تظل بحاجة إلى التطوير والإمداد؛ وفاءً بحاجة المجتمع الإنساني المتطورة، وقيامًا بواجب خدمة الإسلام وأهدافه، لاسيما إذا اجتمعت لدى العلماء في فرع من فروع العلم وفرةٌ من المسائل، والموضوعات التي بان لها أصلٌ جامع، وانكشف لها خيط ناظم فاستدعت لذلك أن تُفرد بعلم مستقل، يقوم على خدمة تلك المسائل والعناية بتلك الموضوعات.

ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك (علم الفقه الإسلامي)، وما تولد عنه من علوم، إذ من رحم علم الفقه خرج علمُ (أصول الفقه) ليكون بقواعده البيانية والمنهجية في خدمة الفقيه، يساعده على استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية، ثم وجَد العلماءُ بعد ذلك الحاجةَ ملحة لميلاد علم (القواعد الفقهية)، ثم علم (النظريات الفقهية)، حتى انتهوا في السياق نفسه لاستحداث علم (مقاصد الشريعة الإسلامية).

ولئن دعت الضرورة العلمية والحياتية لاستحداث تلك العلوم – لاسيما علم مقاصد الشريعة – في ميدان الفقه الإسلامي؛ ضمانًا لسلامة الحركة التشريعية، وأملًا في تقليل الفجوة التي كانت حاصلة بين الفقهاء نتيجة اختلاف مناهجهم في الاستنباط، فلقد أمست الحاجة ملحة في مجال الدعوة الإسلامية لميلاد علم جديد يستقل بالبحث عن المقاصد الكبرى والأهداف العليا للدعوة الإسلامية؛ لتكون تلك المقاصد بمثابة المعايير الحاكمة للنشاط الدعوي، والأولويات الثابتة لخطاب إسلامي يتقدم به الدعاة للتعريف بالإسلام، والكشف عن رؤيته الكلية وفلسفته العامة للكون والحياة، باعتباره رسالة عالمية خالدة، تستهدف سعادة الناس في الدارين.

ولهذا الغرض قصدت إلى إعداد هذا البحث الذي عنونت له بـ" **مقاصد الدعوة الإسلامية** " لما تضمنه من التأصيل لمقاصد عشرة اقتسمتها على مجالات ثلاثة: (معرفي – ووجداني – واجتماعي). وقد قدمت لتلك المقاصد بمبحث لبيان أوجه التمايز بين مقاصد الشريعة – بما انتهت إليه بمدلولها الاصطلاحي – ومقاصد الدعوة الإسلامية. كما اختتمت الحديث عن كل مقصد من مقاصد الدعوة ببيان لأهم ما ينبغي على الدعاة اعتماده لتحقيق ذلك المقصد من عناصر ومحاور، تاركًا التفصيل في تلك العناصر لمواطن أخرى؛ نظرًا لطبيعة البحث.

أسباب اختيار الموضوع: ١- انشغال كثير من الدعاة بفروع النصوص الدعوية وجزئياتها بمعزل عن مقاصدها التى ترمى إليها، وهو ما تبدو الدعوة الإسلامية معه جامدة غير قادرة على استيعاب حاجة العصر فضلًا عن علاج مشكلاته.

٢- ما نتج عن هذا الانشغال الجزئى من خلاف أفضى إلى التصادم بين بعض العاملين في مجال الدعوة نتيجة غياب الرؤية الشاملة والأهداف الكلية الحاكمة للعمل الدعوي.

٣- ندرة المصادر التى عُنيت بالحديث عن مقاصد الدعوة الإسلامية مقارنة بما صُنف فى مقاصد الشريعة الإسلامية، علمًا بأن الدعوة أعم وأشمل من معنى الشريعة في دلالتها الاصطلاحية.

أهميه الموضوع: ١- إبراز الصورة الحضارية والإنسانية للدعوة الإسلامية، وذلك ببيان أهدافها العامة، وغاياتها الكبرى وهو ما يعين على التعريف بحقيقة الإسلام وجوهر رسالته، وبيان ما امتاز به عن غيره من الأديان والفلسفات في مجالي الدين والدنيا.

٢- تحديد الأهداف والغايات له دور كبير فى تطوير الخطاب الدعوى وواقعيته من جهة، كما أنه يسهم فى تحديد الوسائل والأساليب وانتقاء الأدوات والآليات المناسبة لروح العصر والمحققة لنجاح الدعوة الإسلامية من جهة ثانية.

٣- الإسهام فى اجتماع كلمة المؤسسات العاملة للدعوة الإسلامية، وذلك برسم ملامح عامة وضوابط معيارية تحدد مقاصد الدعوة الكبرى، مما يمثل أرضية مشتركة ينطلق منها كل العاملين للدعوة، وإن اختلفوا فيما بينهم في اختيار الوسائل والأدوات.

مشكلة الدراسة: تسعى الدراسة للإجابة عن سؤال إجمالي مفاده: هل للدعوة الإسلامية مقاصد تتميز بها ومن ثم تختلف تلك المقاصد من بعض وجوهها عما رصده العلماء من مقاصد للشريعة الإسلامية؟ وما أهم المحاور الرئيسة الداعمة لتحقيق كل مقصد من تلك المقاصد على حدة؟

مناهج البحث: ١- المنهج الاستقرائى[١]: وقد أفدت منه فى تتبع النصوص المتعددة الدالة على المعنى الواحد، وإن أتت في سياقات ومجالات مختلفة من القرآن الكريم والسنة

[١] - **المنهج الاستقرائي: يعني تتبع الجزئيات كلها أو بعضها للوصول إلى حكم عام يشملها جميعًا. انظر: المرشد السليم في المنطق الحديث والقديم، دكتور: عوض الله حجازي، ص ١٨٤، الطبعه السادسة، دار الطباعة المحمديه بدون تاريخ.**

المطهرة، ولكنها قد دلت بوفرتها وكثرتها – رغم تفرقها – على قانون عام ومبدأ كلي واحد اعتبرته مقصدًا من مقاصد الدعوة الإسلامية، وهدفًا من أهدافها الثابتة.

٢- المنهج التحليلي[١]: وقد أفدت منه في تحليل وشرح مضامين النصوص القرآنية والنبوية ذات التعلق بموضوع المقاصد الدعوية التي عمدت إلى معالجته ودراسته.

الدراسات السابقة: رسالة ماجستير بعنوان: **(فقه مقاصد الدعوة إلى الله تعالى وأثره في حياة الداعية)** تقدم بها الباحث سعد بن عبدالله بن سعود القعود، في كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

وقد رصد الباحث في أحد فصول رسالته خمسة مقاصد للدعوة الإسلامية، وهي:

١- مقصد تحقيق مقتضى كلمة التوحيد. ٢- مقصد إقامة الحجة على الناس بالبلاغ المبين. ٣- مقصد هداية الناس وإنقاذهم من النار. ٤- مقصد كلمة الدين وإعلاء كلمة الله في الأرض. ٥- مقصد حفظ الضروريات الخمس.

وأهم ما يلاحظ على هذه الرسالة ما يلي:

١- أنها لم تقصد ابتداء لاستقراء مقاصد الدعوة الأساسية، وإنما عَرَّج الباحث عرضًا في فصلٍ واحدٍ من فصول الرسالة على بعض المقاصد، وهو ما يختلف عن طبيعة دراستنا التي عنيت ابتداءً، وأتت قصدًا لرصد المقاصد العامة للدعوة الإسلامية.

٢- أنَّ المقاصد التي ذكرها الباحث أتت متداخلة، ويبدو ذلك واضحا بالنظر في المقصدين: الأول والرابع من رسالته، ذلك أن تحقيق مقتضى كلمة التوحيد يستلزم بالضرورة إظهار كلمة الدين، وإعلاء كلمة الله في الأرض.

٣- المقاصد التي ذكرها الباحث أغفلت المقاصد الحضارية للدعوة كمقصد العمران، والعدل، والحرية وغيرها من المقاصد الأساسية التي دلت عليها النصوص القطعية حتى بلغت من الكثرة ما بلغت!

٤- لم يفرق الباحث بين مقاصد الشريعة ومقاصد الدعوة، على ما لذلك من أهمية وضرورة، ولم يَضَع أو يُشر إلي آليات تحقيق كل مقصد من المقاصد، كما هو المرجو من دراستنا.

---

١ – المنهج التحليلي هو: الذي نقوم من خلاله بتحليل المحتوى العلمي، والتوصل من خلاله إلى النتائج المتصلة بموضوع البحث من قريب أو بعيد. انظر: البحث العلمي، مفهومه، أدواته، أساليبه. دكتور ذوقان عبيدات وآخرون، ص٦، ط الدار مجدلاوي للنشر، عمان الاردن.

خطــة البحث

جاء هذا البحث منتظماً في مقدمة وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة، وذلك على النحو التالي:

المقدمة: وفيها الحديث عن أهمية الموضوع وأسباب اختياره، وخطة البحث.

التمهيد، وبه نقطتان:

- النقطة الأولى: التعريف بالمقاصد الدعوية.
- النقطة الثانية: تساؤلات مشروعة بين يدي المقاصد الدعوية.

المبحث الأول: **المقاصد بين الشريعة والدعوة ، وفيه أربعة مطالب**:

- المطلب الأول: اختلاف الدلالة الاصطلاحية بين الشريعة والدعوة وآثاره.
- المطلب الثاني: الاختلاف في تقدير الضروريات بين الشريعة والدعوة.
- المطلب الثالث: الشريعة والدعوة بين الجانب القانوني والجانب التربوي.
- المطلب الرابع: المقاصد بين شراكتها في الشريعة وتفردها في الدعوة.

المبحث الثاني: **المقاصد المعرفية للدعوة الإسلامية، وفيه مطلبان**:

- المطلب الأول: مقصد الهداية
- المطلب الثاني: مقصد العلم

المبحث الثالث: **المقاصد الوجدانية للدعوة الإسلامية، وفيه أربعة مطالب**:

- المطلب الأول: مقصد التزكـية
- المطلب الثاني: مقصد العـدل
- المطلب الثالث: مقصد الحـرية
- المطلب الرابع: مقصد التربية الجـمالية

المبحث الرابع: **المقاصد الاجتماعية للدعوة الإسلامية، وفيه أربعة مطالب**:

- المطلب الأول: مقصد وحدة الأمة
- المطلب الثاني: مقصد العمران
- المطلب الثالث: مقصد الإصلاح
- المطلب الرابع: مقصد الإخاء والسلام العالمي

الخاتمة، وبها أهم النتائج والتوصيات.

التمهيـــــــــد

النقطة الأولى: التعريف بالمقاصد الدعوية

المقاصد في اللغة: جمع مقصد، وهو مصدر ميمي من الفعل قصد الذي يدور معناه في اللغة حول: الاستقامة والاعتدال، والتوجه نحو الشيء.

ففي مقاييس اللغة:"(قَصَدَ) الْقَافُ وَالصَّادُ وَالدَّالُ أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ، يَدُلُّ أَحَدُهَا عَلَى إِتْيَانِ شَيْءٍ وَأَمِّهِ، وَالْآخَرُ عَلَى اكْتِنَازٍ فِي الشَّيْءِ. فَالْأَصْلُ: قَصَدْتُهُ قَصْدًا".[1]

وقال ابن جِنّي:" أصل مادة (ق ص د) ومواقعها في كلام العرب: الاعتزام، والتوجه، والنهوض نحو الشيء، على اعتدال كان ذلك أو جَوْر"[2]

أما المقاصد في الاصطلاح الدعوي فالمقصود بها: الغايات الكلية المستقاة – بالاستقراء – من الإسلام في جانبه التبليغي، بغرض رسم الفلسفة الكلية للتعريف به، وتحديد أولويات الدعوة إليه، وترشيد حركة العاملين له من الدعاة والعلماء.

فهي من جانب تمثل الرؤية الكلية للتعريف بالإسلام، بما ينكشف معها امتلاك الإسلام لمقومات العالمية، واستيعابه لمرتكزات النظام الاجتماعي اللازم لحياة إنسانية ينعم الناس في ظلالها بالأمن والرفاهية.

ومن جانب ثانٍ تمثل الأطر الكلية، وقاعدة الانطلاق التي يجب أن يتمركز حولها عمل الدعاة والساعيين لخدمة الإسلام، وإن تباينت فيما بينهم الوسائل التي يستخدمونها، والآليات التي يعتمدونها.

وهي كذلك تمثل نمطًا من الأولويات الثابتة التي يستهدفها الخطاب الدعوي، ويتم على هديها اختيار المفردات الجزئية، والموضوعات الفرعية لذلك الخطاب.

---

١ – معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م، مادة: قصد، ص٩٥،ج٥

٢ – المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي [ت: ٤٥٨هـ]، المحقق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠ م، ص١٨٧، ج٦، باب: القاف والصاد والدال.

النقطة الثانية: تساؤلات مشروعة بين يدي المقاصد الدعوية

١- هل هذه المقاصد هي مقاصد الإسلام؟

٢- هل من نص على تلك المقاصد؟

٣- لماذا هذه المقاصد دون غيرها؟

(١) هل هذه المقاصد هي مقاصد الإسلام ؟

المقاصد الدعوية هي مقاصد من الإسلام, وليست وحدها مقاصد الإسلام؛ لأنها مقاصد منه في جانبه التبليغي خاصةً, يستنبطها الدعاة بحكم تخصصهم حتى تكون بمثابة معايير حاكمة لنشاطهم الدعوي, وموضوعات ذات أولوية ثابتة لخطاب ديني إنساني مستوعب وشامل, يمكن أن ينبني على أساسه تفعيل عالمية الإسلام ونظامه.

ومعنى ذلك أن لغير الدعاة أن يستخلصوا من الإسلام مقاصد أخرى بحكم تخصصاتهم. فلأهل التربية مثلًا أن يُعنوا بالمقاصد التربوية من الإسلام, ولأهل القانون استخلاص المقاصد التشريعية, وكذلك لعلماء النفس, وأرباب الاجتماع، ومثلهم أهل التراتيب والإدارة... وكذلك لغيرهم من سائر التخصصات أن يعمدوا إلى الإسلام لاستخراج مقاصده من كل هذه المجالات . ولا شك أن تلك المقاصد جميعها ستتقاطع في بعض المواطن, ولكن تبقى وجوه التمايز قائمة بينها, وذلك بحكم طريقة الاستنباط وآلية العمل من جهة, وطبيعة الموضوعات والنصوص المستهدفة باستخراج مقاصدها لدى كل فريق من جهة أخرى.

(٢) هل من نص على تلك المقاصد؟

الحقيقة أن هذه المقاصد استنباطية, وليس هناك من نص على تعيينها, فهي حصيلة استقراء لمرادات الدعوة, وغايات للإسلام في جانبه البلاغي, تمّ استخلاصها من جملة نصوص الإسلام بمصدريه: الكتاب والسنة. وهذا يعني أنها محل للاجتهاد, ولا غرو في ذلك, فقد سبق لعلمائنا حين عمدوا إلى القرآن الكريم (وهو مادة الدعوة الأولى ومصدرها الرئيس) بغية استنباط مقاصده, أن تباينت وجهات نظرهم في عدّها، فقد حصرها الإمام الغزالي في (جواهر القرآن) في ستة مقاصد، بينما زاد بها الشيخ رشيد رضا في (الوحي المحمدي) إلى عشرة مقاصد، في حين وقف بها الشيخ الغزالي عند خمسة مقاصد في (محاور القرآن الخمسة).

(٣) لماذا هذه المقاصد دون غيرها ؟

لا شك أن مقاصد الدعوة متعددة, خاصة وأن هناك مقاصد فرعية وتبعية كثيرة, لكني اخترت هذه المقاصد العشرة لكونها أمهات وأصولًا لغيرها من المقاصد, وقد انتهجت في ذلك طريقة من سلف من علماء الأمة في نصهم على الأصول التي تنتظم تحتها الفرعيات في كثير من الفنون.

فعلماء الكلام – مثلا – أجملوا الصفات الواجبة لله – تعالى – في سبع صفات (وهي صفات المعاني)، اعتبروها أصولًا لكل صفات الكمال الواجبة له جل شأنه, مع تقريرهم أن الله – تعالى – تجب له كل صفة كمال تليق بذاته المقدسة.

والإمام الغزالي (ت ٥٠٥هـ) – رحمه الله – ردّ الأخلاق جميعها – مع كثرتها – إلى أصول أربعة, وكان من قوله في ذلك:" أمهات الْأَخْلَاقِ وَأُصُولُهَا أَرْبَعَةٌ: الْحِكْمَةُ، وَالشَّجَاعَةُ، وَالْعِفَّةُ، وَالْعَدْلُ... فَمِنِ اعْتِدَالِ هَذِهِ الْأُصُولِ الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلها"[١]

فعلى هذا الطريق درجت, واكتفيت بحصر أمهات المقاصد الدعوية وأصولها, وقد عزّز هذا الاختيار أمور، أهمها:

١- استيعاب هذه الأصول للمقاصد التبعية للدعوة الإسلامية, وانضواء سائر أهدافها القريبة تحتها.

٢- تغطية تلك المقاصد لكل احتياجات الإنسان: المادية والروحية, الدينية والدنيوية, الفردية والجماعية ...إلخ

٣- استنباطها من جملة نصوص الإسلام, وليس فقط من مجموع النصوص التكليفية العملية.

٤- استيعاب هذه المقاصد لكل منافذ الإنسان الحياتية, وشمولها لكل مداخله البشرية, فما من مقصد من تلك المقاصد إلا وهو وسيلة لتغطية حاجة من حاجات الإنسان.

فمقصد (الهداية) مثلًا سبيل الإنسان إلى ربه و(التزكية) دليله إلى نفسه و(الجمال) وسيلته إلى وجدانه و(المعرفة) منفذه إلى عقله و(العمران) طريقه إلى معاشه و(الحرية) بابه إلى كرامته و(العدل) واسطته إلى استقامته و(الإخاء والسلام) سبيله إلى مدنيته و(الأمة) طريقه إلى قوته، كما أن (الإصلاح) مدخله إلى تقويمه واعتداله.

---

[١] – إحياء علوم الدين, الإمام أبو حامد محمد الغزالي (ت٥٠٥ هـ), ج٣, ص٨٢, دار الحديث بالقاهرة, ١٤١٩هـ ا ١٩٩٨م (بتصرف يسير)

المبحث الأول:

المقاصد بين الشريعة والدعوة

وفيه أربعة مطالب:

- **المطلب الأول: اختلاف الدلالة الاصطلاحية بين الشريعة والدعوة وآثاره.**
- **المطلب الثاني: الاختلاف في تقدير الضروريات بين الشريعة والدعوة.**
- **المطلب الثالث: الشريعة والدعوة بين الجانب القانوني والجانب التربوي.**
- **المطلب الرابع: المقاصد بين شراكتها في الشريعة وتفردها في الدعوة.**

المطلب الأول: اختلاف الدلالة الاصطلاحية بين الشريعة والدعوة وآثاره

لعل أول ما يجب الالتفات إليه أن الشريعة في دلالتها الاصطلاحية قد انحصر مفهومها عن دلالتها في السياق القرآني، وهو ما كان له آثاره في التمايز بين مقاصد الشريعة ومقاصد الدعوة، وفيما يلي بيان لذلك:

الشريعة في اللغة: وردت الشريعة في اللغة للدلالة على مورد الماء ومنبعه, ثم استعيرت للدلالة على الوحي المعصوم المنزل على الأنبياء.

جاء في معجم مقاييس الفقه:" الشِّينُ وَالرَّاءُ وَالْعَيْنُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ شَيْءٌ يُفْتَحُ فِي امْتِدَادٍ يَكُونُ فِيهِ. مِنْ ذَلِكَ الشَّرِيعَةُ، وَهِيَ مَوْرِدُ الشَّارِبَةِ الْمَاءَ. وَاشْتُقَّ مِنْ ذَلِكَ الشِّرْعَةُ فِي الدِّينِ وَالشَّرِيعَةِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **{لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا}** [المائدة: ٤٨] ، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: **{ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ}** [الجاثية: ١٨]".[١]

ولعل من وجوه الحكمة في إطلاق الشريعة على الوحي المعصوم رغم ورودها للدلالة على منبع الماء وموردة الإشارة إلى ضرورة الدين والوحي لاستبقاء الحياة الروحية للنفوس, كضرورة الماء لاستبقاء الحياة المادية لها وفي القرآن الكريم ما يشير إلى هذا المعنى.

ففي ضرورة الماء للحياة الحسية يقول جل شأنه:**{وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}[الأنبياء: ٣٠]**, وفي أهمية الدين للحياة الروحية والاجتماعية يرد قوله سبحانه: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [الأنفال: ٢٤].**

الشريعة في السياق القرآني: ولئن وردت الشريعة في اللغة للدلالة على مورد الماء، فلقد وردت في القرآن الكريم للدلالة على معنين :

الأول: الشريعة بمعنى الإسلام بجملة نصوصه وما دلت عليه من عقيدة، وشريعة, وعبادات, وأخلاق.

الثاني: الشريعة بمعنى الأحكام العلمية وحدها, والتي ربما اختلفت من دين لآخر تبعًا لتطورات الحياة الإنسانية, وما استلزمه ذلك التطور من التغاير في بعض الأحكام.

ففي المعنى الأول للشريعة يرد قوله تعالى: **{ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [الجاثية: ١٨]** . فالشريعة هنا تعني الدين, والملة,

---

[١] – معجم مقاييس اللغة, أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ), المحقق: عبد السلام محمد هارون, الناشر: دار الفكر, عام النشر: ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م, ج٣, ص٢٦٢، مادة (شرع)

والمنهاج, تعني الإسلام عمومًا، لاسيما وقد وردت مقابلة للتحذير من اتباع الأهواء البشرية من جهة, ومقابلة للشريعة الموسوية والمسيحية من جهة ثانية.

وفي المعنى الثاني للشريعة يأتي قوله سبحانه: **{ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا...} [المائدة: ٤٨].**

فالشِّرْعة[١] هنا بمعنى الأحكام الفرعية العملية الخاصة بكل ديانة, وإن بقيت الأديان متفقة في الأصول. وهذا التخصيص لمدلول الشريعة واختصاره في معنى الأحكام العملية من كل دين هو ما جعل البعض يحتج بهذه الآية على أن شرع من قبلنا لا يلزمنا لخصوصية الشرائع بهذا المفهوم.[٢]

هذا وفي الجمع بين ما ورد من آيات دلَّ بعضها على اتحاد شرائع الأنبياء، ودلَّ بعضها الآخر على اختلاف فيما بينها يقول الإمام الرازي:" وَطَرِيقُ الْجَمْعِ أَنْ نَقُولَ: النَّوْعُ الْأَوَّلُ مِنَ الْآيَاتِ مَصْرُوفٌ إِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِأُصُولِ الدِّينِ، وَالنَّوْعُ الثَّانِي مَصْرُوفٌ إِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِفُرُوعِ الدِّينِ".٣

انحصار دلالة الشريعة على الفروع والأحكام العملية من الإسلام

ومع ورود مصطلح الشريعة في القرآن الكريم ودلالته على المعنيين: العام الذي يراد به جملة الإسلام, والخاص الذي يقصد به مجموعة الأحكام العملية الفرعية منه, إلا أن الدلالة الخاصة لمصطلح الشريعة هي التي غلب استعمالها لدى الفقهاء، حتى أصبحت دلالتها مقصورة على الجانب العملي في الإسلام، وأحكام المعاملات ذات الطابع القانوني منه،

---

١ – الشرعة كما يقول الطبري : " هي" الشريعة" بعينها، تجمع "الشرعة" "شِرَعًا"، "والشريعة" "شرائع". ولو جمعت "الشرعة" "شرائع"، كان صوابًا، لأن معناها ومعنى "الشريعة" واحد، فيردّها عند الجمع إلى لفظ نظيرها.". جامع البيان في تأويل القرآن, المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ), المحقق: أحمد محمد شاكر, الناشر: مؤسسة الرسالة, الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م, ج١٠, ص٣٨٤

٢ – انظر: مفاتيح الغيب = التفسير الكبير, أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ), الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت, الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ, ج١٢, ص٣٧١

٣ – المرجع نفسه , ج١٢, ص٣٧٢

فصارت بهذا المفهوم هي والفقه سواء، وضاق على إثر ذلك مفهومها بعد تخصيصه كما ضاق مفهوم الفقه هو الآخر بعد تخصيصه[١].

يقول الإمام التفتازاني: " اعلم أن الأحكام الشرعية منها ما يتعلق بكيفية العمل، وتسمى فرعية وعملية، ومنها ما يتعلق بالاعتقاد، وتسمى أصلية واعتقادية. والعلم المتعلق بالأولى، يسمى علم الشرائع والأحكام.... وبالثانية علم التوحيد والصفات".[٢]

بل إن الإمام الطاهر بن عاشور حين ألف كتابه (مقاصد الشريعة) قد نصَّ على أن ما يعنيه بالشريعة هو: الجانب القانوني من الإسلام، لاسيما ما يتعلق بقوانين المعاملات، كما راق له إضافةً لذلك أن يُفرد جانب العبادات من الإسلام باسم: (الديانة) وذلك بعد استقلاله عن الشريعة بمعناها الاصطلاحي. وفي هذا يقول – رحمه الله– : " فمصطلحي إذا أطلقت لفظ التشريع أني أريد به: ما هو قانون للأمة. ولا أريد به مطلق الشيء المشروع، فالمندوب والمكروه ليسا بمرادين لي. كما أرى أن أحكام العبادات جديرة بأن تسمى بالديانة، ولها أسرار أخرى تتعلق بسياسة النفس، وإصلاح الفرد الذي يلتئم منه المجتمع؛ لذلك قد اصطلحنا على تسميتها بنظام المجتمع الإسلامي" .[٣]

فالحاصل إذن أن العُرف العلمي قد استقر لديه انحصار معنى الشريعة في الدلالة على الجانب القانوني أو الأحكام العملية من الإسلام، وهو ما كان من نتائجه أن غدت الشريعة

---

[١] – ولعل هذا التصرف بتخصيص معاني الألفاظ بعد عمومها هو ما جعل الإمام أبا حامد الغزالي يعقد فصلاً في (الإحياء) لبيان ما بُدّل من ألفاظ العلوم. وقد ذكر من تلك الألفاظ خمسة هي: (الفقه – العلم– التوحيد– الذكر– الحكمة) مبيناً أن لفظ (الفقه) قد تصرّف فيه المتأخرون بالتخصيص لا بالنقل والتحويل، حيث جعلوه دالاً على معرفة الفروع الغريبة في الفتاوى والوقوف على دقائق عللها، واستكثار الكلام منها، وضبط المقالات المتعلقة بها، وذلك بعد أن كان (الفقه) في العصر الأول يعني: مطلق الفهم للدين، والدلالة على العلم بأحوال الآخرة، ومعرفة آفات النفوس، ومفسدات الأعمال. وقد أضاف– رحمه الله– قائلاً : " ولست أقول إن اسم الفقه لم يكن متناولاً للفتاوى في الأحكام الظاهرة ولكن كان بطريق العموم والشمول أو بطريق الاستتباع فكان إطلاقهم له على علم الآخرة أكثر". راجع إحياء علوم الدين، ج١، ص٥٢

[٢] – شرح العقائد النسفية, عمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل، أبو حفص، نجم الدين النسفي (المتوفى: ٥٣٧ هـ), الشارح: سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني الشافعي (المتوفى: ٧٩٣ هـ), المحقق: الدكتور الشيخ أحمَد حجازِي السقّا, الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة – مصر, الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م, ص١٠

[٣] – مقاصد الشريعة الإسلامية، الإمام محمد الطاهر بن عاشور، دار اسلام للطباعة والنشر، الطبعة الثامنة ١٤٣٩هـ – ٢٠١٨م، ص٨ (لا ننسى في هذا السياق التذكير بأن الأزهر الشريف خصص لدراسة الجانب القانوني من الإسلام خاصة كلية الشريعة والقانون...)

بهذا المفهوم أخص وأضيق في الدلالة من مفهوم الدعوة الإسلامية ودلالته؛ ذلك أن الدعوة قد سلك علماؤها في تعريفها الاصطلاحي منحيين: أحدهما وظيفي, والثاني موضوعي .

فالدعوة بمنحاها الوظيفي المهني تعني: " العلم الذي تعرف به كافة المحاولات الفنية المتعددة الرامية إلى تبليغ الإسلام بما حوى من عقيدة وشريعة وأخلاق".[١]

أما الدعوة بمنحاها الموضوعي فتعني: " الدين الذي ارتضاه الله للعالمين، وأنزل تعاليمه وحياً على رسول الله ﷺ وحفظها القرآن الكريم والسنة النبوية".[٢]

ويمكن القول بأن الدعوة في دلالتها الوظيفية تعني: حركة الدعاة بالإسلام بلاغًا ودفاعًا, وما تستلزمه تلك الحركة من جوانب فنية تتعلق بضرورة تحديد الأهداف والغايات, ورسم المناهج والمقررات, وتعيين الأولويات والمهمات, وانتقاء الأساليب والأدوات, مضافًا لذلك كله الإعداد الشامل للكوادر والرجالات.

كما أنها في دلالتها الموضوعية تعني: الإسلام الذي أوحاه الله إلى نبينا محمد ﷺ بما اشتمل عليه من عقائد, وعبادات, ونظم حضارية، وقواعد تربوية....إلخ.

والدعوة بمنحاها الثاني مرادفة للإسلام, كما هي مرادفة لمفاهيم: الشريعة الإسلامية (بمفهومها العام)، والرسالة الإسلامية، والديانة الإسلامية، والمِلَّة الإسلامية... إذ كلها مفردات وتعابير دالة على الإسلام بعمومه.

ودلالة الدعوة على الإسلام عمومًا هي ما دلّ عليه قوله تعالى:{لَه دَعْوَةُ الْحَقِّ}[الرعد: ١٤] أي: الإسلام، ودلَّ عليه قوله صلى الله عليه وسلم في دعوته أحد الملوك:" أدعوك بدعاية الإسلام" أو:" بدعوة الإسلام". كما أنه كان المقصود لدى العلماء قديماً حين كانوا يفرقون بين مَنْ بلغته الدعوة وبين مَنْ لم تبلغه، حيث كان قصدهم بالدعوة عندئذ الإسلام كله.

لقد ترتب على شمولية الدعوة بدلالتها الاصطلاحية، وعموم مضامينها العقدية والتشريعية والحضارية اتساع دائرة مقاصدها التي تتغياها، وأهدافها التي ترمي إليها، وذلك بخلاف مفهوم الشريعة الذي أصبح محصورًا في الدلالة على الأحكام العملية من الإسلام، حتى أفضى إلى انحصار مقاصدها العامة في الضروريات الخمس، وهي: الدين، النفس، العقل، المال، النسل.

---

[١] – الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها، د. أحمد غلوش، ط دار الكتاب اللبناني، ط الثالثة ، ص١٠

[٢] – الدعوة بين القصور النظري والعملي، د. عبد العزيز برغوث، بحث بمجلة التجديد الماليزية، العدد الثاني عشر، أغسطس ٢٠٠٢م، ص٢٥

المطلب الثاني: الاختلاف في تقدير الضروريات بين الشريعة والدعوة

إذا كانت الشريعة قد أجملت مقاصدها العامة في الضروريات الخمس، فإن الدعوة- وإن التقت مع الشريعة في ضرورة تحقيق تلك المقاصد . قد رمت إلى مقاصد أخرى هي في نفس درجة تلك الضروريات الخمس من الأهمية، إن لم تكن أهم من بعضها وأثقل في الميزان، ويؤكد ذلك أمران:

الأول: أن الفقهاء بينهم خلاف في حصر تلك الضروريات في خمس، كما أن بينهم خلافًا في ترتيبها.

فالإمام الشوكاني – مثلا – عدد هذه الضروريات الخمس دون مراعاة لترتيبها، بل زاد عليها ضرورة أخرى وهي، (العِرض)، وقد اعتبر" أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَتَجَاوَزُ عَمَّنْ جَنَى عَلَى نَفْسِهِ أَوْ مَالِهِ، وَلَا يَكَادُ أَحَدٌ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَمَّنْ جَنَى عَلَى عِرْضِهِ".[1].

وما يعنينا من هذا الخلاف هو دلالته على أن هناك ضروريات أخرى يجب الاهتمام بها والعناية بشأنها، وهو ما اتسعت له مقاصد الدعوة، وإلا فهل ينكر أحد أهمية العمران في نهضة الأمة واستبقاء مجدها وقوتها، وشهادتها على الناس؟! أو هل ينكر إنسان قيمة العلم والمعرفة وضرورتهما في التربية وترقية النوع الإنساني؟!

ومَنْ ينكر حاجة البشرية اليوم للإخاء الإنساني، والسلام العالمي كبديل عن جحيم العنصريات الذي تعيشه، ولظى الحروب الذي تعانيه،.... إلى غير ذلك من تلك الأمور الاجتماعية والحضارية التي استهدفتها الدعوة بمقاصدها، وهو نوع من التمايز لا ينبغي إغفاله.

الثاني: أن الفقهاء أنفسهم قد أقروا أن الحاجيات قد تنزل منزلة الضروريات، والإمام السيوطي يُعَنون للقاعدة الفقهية الخامسة من القواعد المجمع عليها بقوله:" الحاجة تنزل منزلة الضرورة، عامّة كانت أو خاصة" .[2] وهو ما يعني أن ما كان ثانوياً بالأمس قد

---

[1] – إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، المحقق: الشيخ أحمد عزو عناية، دمشق – كفر بطنا، قدم له: الشيخ خليل الميس والدكتور ولي الدين صالح فرفور، الناشر: دار الكتاب العربي، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م، ج٢، ص١٣٠

[2] – الأشباه والنظائر، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ – ١٩٩٠م، ص٨٨

يصبح ضرورياً اليوم، وما كان لا يسبب حرجاً في الماضي، قد تستحيل معه الحياة في الحاضر.

فمن كان يظن أن ملف الحريات الإنسانية بأنواعها المختلفة – حرية التدين والمعتقد، حرية الاستقلال الوطني، حرية التعبير، حرية الفن والإبداع – سيأخذ ذلك الاهتمام المحلي والعالمي، حتى ليقام باسمه مؤسسات دولية تشرف على شئونه؟ ومن كان يتوقع أن تتنامى ثقافة الإنسان وتتطور معارفه بما يجعله في يوم من الأيام يقدم حقه في الحرية على حقه في رغيف الخبز، ويبذل في سبيل ذلك أغلى ما لديه.

إن الدعوة الإسلامية بشمولها واتساع مقاصدها قادرة على تغطية تلك الاحتياجات، خاصة وهي في أصلها دعوة تحريرية, تستهدف تحرير الإنسان ذاتاً ومعنى؛ إذ هي دعوة لتحرير النفس والوجدان, وتحرير البلدان والأوطان, كما هي دعوة لتحرير الرقاب والأبدان.

لقد أحسن الإمام الطاهر بن عاشور– رحمه الله– حين علق على حفظ النفس بتشريع القصاص بقوله:" وليس المراد حفظها بالقصاص كما مثّل بها الفقهاء، بل نجد القصاص هو أضعف أنواع حفظ النفوس؛ لأنه تدارك بعد الفوات، بل الحفظ أهمه حفظها عن التلف قبل وقوعه.... ".[1]

ولقد اعتبر القرآن الكريم العدوان على حق الناس في الحرية الدينية مثلاً(وهي أحد فروع الحرية) أشد جرمًا وإثمًا من العدوان على حياتهم الحسية، وفي ذلك يقول تعالى: { **وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ**} [البقرة: ١٩١. وإنما كانت الفتنة بما تمثله من إكراه أشدّ من القتل لأنها عدوان على أهم ما في الإنسان من خصائص، وهو الإرادة ، وإلا فهل يبقى للإنسان شيء من الآدمية لو انتزعت منه إرادته، أو صودر حقه في اختيار دينه؟!

فالمعنى أن هناك جوانب مادية وأدبية في حياة الإنسان أصبح من الضروري الاهتمام بها، والعمل على الوفاء بحاجتها، وهو ما تعمد إليه الدعوة بمقاصدها الكلية، وغاياتها البعيدة.

****

[1] – مقاصد الشريعة، الطاهر بن عاشور، ص٨٩، مرجع سابق.

المطلب الثالث: الشريعة والدعوة بين الجانب القانوني والجانب التربوي

بالنظر في الفروق بين مقاصد الشريعة ومقاصد الدعوة يتبين كذلك أن الشريعة قد اعتمدت في تحقيق مقاصدها –غالبًا. على سلطة القانون وحِدّته، بينما استندت الدعوة في تحقيق مقاصدها على التربية ومرونتها، وفي النقاط التالية توضيح لذلك.

١– لقد اعتمدت الشريعة – غالبًا – في حماية مقاصدها على تطبيق الحدود باعتبارها زواجر رادعة عن المساس بالضروريات الخمس، بل إن الحدود كانت منطلقًا أساسيًا في استنباط مقاصد الشريعة العامة؛ لأن الحدود وإن كانت قليلة العدد إلا أنها كبيرة الأثر، وقد قالوا في ذلك: "وَالْعُقُوبَاتُ خَمْسُ مَزَاجِرَ: مَزْجَرَةُ قَتْلِ النَّفْسِ كَالْقِصَاصِ، وَمَزْجَرَةُ أَخْذِ الْمَالِ كَالْقَطْعِ فِي السَّرِقَةِ، وَمَزْجَرَةُ هَتْكِ السِّتْرِ كَالْجَلْدِ وَالرَّجْمِ، وَمَزْجَرَةُ ثَلْمِ الْعِرْضِ كَحَدِّ الْقَذْفِ، وَمَزْجَرَةُ خَلْعِ الْبَيْضَةِ كَالْقَتْلِ عَلَى الرِّدَّة".[١]

ولمّا كانت الشريعة ترتكن في تحقيق مقاصدها على الحدود– غالباً– وتلك الحدود لا يقوم على تنفيذها إلا الدولة بسلطتها، فقد اختلفت في ذلك عن الدعوة التي تنتهج في استهداف مقاصدها سياسة التربية الهادئة، وتتبنى منهج التوعية الشاملة، وتخاطب من الكينونة البشرية كل مداخلها، حتى تفرض سلطانها بتلك المسالك اللينة على النفوس والعقول.

فالدعوة هي التي تعمد إلى الوجدان فتشبعه، وتتوجه إلى العقل فتقنعه، وتميل إلى الضمير فتحييه، ساعية من وراء ذلك كله إلى صناعة الإنسان الفاضل الذي ينشط للفعل رغباً لا رهباً، وهذا بخلاف سلطة الدولة التي لا تتجاوز الخارج الإنساني، وفرق كبير بين الأمرين من حيث النتيجة والأثر. فرق بين من لا سلطان له إلا على الخارج، وبين ما ينفذ إلى الداخل الإنساني بمكوناته الوجدانية والعقلية، ويتسلط على الإرادة، وإن كان في الوقت نفسه لا يمنع من تنظيم الخارج وضبطه عبر قوة الدولة وسلطتها الحادة.

٢– إن مقاصد الشريعة منظور فيها إلى الجانب التكليفي من الإسلام وما يتضمنه ذلك الجانب من الأوامر والنواهي، بينما مقاصد الدعوة منظور فيها . إضافة للأوامر والنواهي– إلى جملة الإسلام وما يتضمنه من آداب أخلاقية، وتصورات عقدية، وتنظيمات حضارية، وقواعد اجتماعية... وغيرها، وهي كلها موضوعات للتربية استَخْلصت منها الدعوة

---

[١] – الجوهرة النيرة، أبو بكر بن علي بن محمد الحدادي العبادي الزَّبِيدِيّ اليمني الحنفي، (المتوفى: ٨٠٠هـ)، الناشر: المطبعة الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٣٢٢هـ، ج١، ص١١٣

مقاصدها، واعتصرت من خلالها غاياتها، ولا شك أن مجال التربية بمضامينه أوسع وأرحب من مجرد مجالي الأمر والنهي التكليفيين.

٣- يلاحظ كذلك مع ضروريات الشريعة أن المكلف ملزم بأقصى درجات الإلزام بالحفاظ عليها؛ لأنها حدّية، مَنْ تجاوزها عُوقِب. فلا يُسمح للمكلف بأدنى درجة من درجات التعدي أو التجاوز، وهذا بخلاف مقاصد الدعوة التي يكون حظ المكلف فيها واضحًا؛ لأنها توجيهية أكثر منها تكليفية، وفرصة تفاوت العباد في تحقيقها ملحوظة.

فالمكلف في فلك الشريعة – مثلا- ليس مخيراً في الحفاظ على دماء الناس, بل هو مجبر على قبض يده عن سفكها, وإلا أقيم عليه حد القصاص. وكذلك لا خيار له في الحفاظ على أموالهم, وإلا أخذ بحد السرقة وقطع اليد، أما مع الدعوة في سعيها لتحقيق مقصدها من (التزكية) مثلاً فإن المكلف يجد نفسه في فسحة من أمره, إذ إن أخذه بتزكية نفسه ليس في صرامة أخذ نفسه بامتناعها عن أموال الناس, ثم إن مجال التزكية يترك التقصير فيه – غالباً- لوازع الضمير وسلطان الوجدان, بخلاف التقصير في إضاعة الأموال على أصحابها فإن العقوبة عليه تكون حادة وعاجلة من قبل سلطة الدولة. كما أن مجال التزكية ميدان رحب للتفاوت والتنافس, إذ إن للتزكية مراتب ومراحل يعلو بعضها بعضاً, وحظوظ الناس من طهر الضمير، وتصفية النفوس بالفضائل، فيها من التفاوت ما لا يَخْفى.

ومثل ذلك يقال عن موقف المكلف من مقاصد:(الإخاء الإنساني) و(العلم والمعرفة) و (العمران) وغيرها من المقاصد الدعوية، حيث إن خطأ المكلفين تجاهها ليس كخطئهم في إزهاق النفس أو سلب المال, كما أن حظوظهم في تحقيقها ليست متساوية ولا متعادلة.

****

المطلب الرابع: المقاصد بين شراكتها في الشريعة وتفردها في الدعوة.

ربما يكون من مظاهر التفريق بين مقاصد الشريعة ومقاصد الدعوة ما نصَّ عليه الأصوليون من أن الضروريات الخمس . التي اعتبروها مقاصد رئيسية للشريعة . هي مما اتفقت عليها سائر الشرائع والملل.

يقول الإمام الغزالي: " وَتَحْرِيمُ تَفْوِيتِ هَذِهِ الْأُصُولِ الْخَمْسَةِ وَالزَّجْرِ عَنْهَا يَسْتَحِيلُ أَنْ لَا تَشْتَمِلَ عَلَيْهِ مِلَّةٌ مِنْ الْمِلَلِ وَشَرِيعَةٌ مِنْ الشَّرَائِعِ الَّتِي أُرِيد بِهَا إصْلَاحُ الْخَلْقِ، وَلِذَلِكَ لَمْ تَخْتَلِفْ الشَّرَائِعُ فِي تَحْرِيمِ الْكُفْرِ وَالْقَتْلِ وَالزِّنَا وَالسَّرِقَةِ وَشُرْبِ الْمُسْكِرِ ".[1]

والدعوة الإسلامية على ما بينها وبين غيرها من الأديان والدعوات السابقة من نقاط تلاق، وعناصر تشابه, إلا أنها تظل متميزة ومتفردة في جوانب أخرى، ولو لم يكن من أوجه تميزها عن تلك الدعوات سوى أنها دعوة عالمية، تتجاوز بعالميتها حدود التاريخ، والجغرافيا، واللون والعرق، بما تشتمل عليه تلك العالمية من تشريعات إنسانية عامة, وقيم حضارية كبرى، وسنن اجتماعية كلية، وقدرة على استيعاب حاجات العصور المختلفة وتجلياتها، ومناداة بأخوة إنسانية مشتركة، لو لم يكن للدعوة الإسلامية سوى هذا التميز بما يترتب عليه من سعة للمقاصد، وشمول للأهداف الوجدانية، والاجتماعية، والحضارية لكفاها.

ومع هذا يبقى من الإنصاف والموضوعية أن نقول: إن الفقهاء لم يغفلوا مقاصد الدعوة الإسلامية بالجملة، وإن لم يُقعّدوا لها نصاً وتفصيلاً، وإلا فقد ذكروا شيئاً منها على جهة الاجمال والإشارة، وذلك كقولهم أن المقصد الرئيسي للشريعة هو تحقيق المصالح ودرء المفاسد.

ومعلوم أن مقاصد الدعوة التفصيلية التي لم يرد النص عليها ضمن مقاصد الشريعة إنما تستهدف هي الأخرى تحقيق المصالح، فهي من هذه الجهة تتقاطع مع الشريعة وتتكامل، وإن بقى الخلاف بينهما في الموضوعات والمضامين التفصيلية، وذلك بسبب طبيعة المجالات التي استُخلصت منها المقاصد في كل منهما من جهة، والتباين في تقدير الضرورات بينهما من جهة أخرى.

كما أن الإمام الشاطبي– مثلاً– في سياق حديثه عن حفظ الضروريات الخمس ذكر أن لحفظها سبيلين: الأول: ما يقيم أركانها. والثاني: ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع.[1]

---

١ – المستصفى، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، ص١٧٤، مرجع سابق.

غير أن ما لم يعتبره الإمام الشاطبي ضرورياً لإقامة أركان تلك الضروريات- بل كان في نظره من العوامل المساعدة التي تدفع عنها الاختلال الواقع أو المتوقع- قد أصبح اليوم من الضروريات والمهمات، وليس من التتمات والمكملات، ولذلك وضعته الدعوة الإسلامية على أولويات مستهدفاتها.

جملة القول أن الدعوة الإسلامية بحكم عالمية خطابها، وإنسانية مضامينها، وكوكبية نظرتها، قد اتسعت بمقاصدها لمحاور إنسانية، ومجالات حياتية أرحب بكثير من مجرد الضروريات التي تقصدها الشريعة- بعد حصرها في الأمور التكليفية القانونية- ولذلك عمدت الدعوة إلى كل ما هو ضروري من مجالات الاجتماع، ومبادئ العمران، وأساليب الحياة الروحية والأدبية، وانتظمته في مقاصدها، وذلك كالسلام العالمي، والعمران، والتزكية، والإخاء الإنساني، والحرية... وغيرها من المقاصد.

ولئن قال البعض إن الشريعة تستهدف الضروريات، قلنا: وكذلك الدعوة تستهدف الضروريات، وإن اعتبرناها ضروريات بحسب الإضافة.

فالشريعة إن كانت تستهدف تحقيق المصالح في أصل وجودها، فإن الدعوة تستهدفها في كمال وجودها، فالأولى تحقيق للمصالح في درجة وجودها الدنيا، والثانية تحقيق لها في درجة وجودها العليا، هذا إذا اعتبرنا التفاوت فقط في الدرجات، وإلا فكثير من مقاصد الدعوة في رتبة المقاصد الشرعية ودرجتها، والواقع يؤيد ذلك كما مَرّ. ثم إن الشريعة إن كانت تستهدف الضروريات الإنسانية فإن الدعوة تستهدف التطلعات البشرية، والطموحات الإنسانية، وما هذه التطلعات، وتلك الطموحات سوى الفلسفة الكبرى للنظام الاجتماعي الكبير الذي تميزت به دعوة الإسلام عن غيرها من الدعوات، ومن ثَمَّ كان العمل على تحقيقها من مهمات الدعوة ومقاصدها.

******

[1] - انظر: الشاطبي في الموافقات ج٢، ص١٨(مرجع سابق)

المبحث الثاني:

المقاصد المعرفية للدعوة الإسلامية

وفيه مطلبان:

- **المطلب الأول: مقصد الهداية**
- **المطلب الثاني: مقصد العلم**

مدخل بين يدي أنواع المقاصد الدعوية الثلاثة

لعل من المفيد قبل السير في معالجة أنواع المقاصد الدعوية الثلاثة وما يندرج تحت كل منها من عناصر خاصة به، الإشارة إلى داعي هذا التقسيم الثلاثي ودافعه؛ ذلك أنه ليس تقسيمًا حديًا، بل هو تقسيم إجرائي.

ليس تقسيمًا حدّيًا يعني ضرورة أن يكون لكل قسم حد فاصل ينتهي إليه، بحيث لا يتماس مع القسم الآخر في شيء أو يرتبط به بشكل أو بآخر، لا تأثيرًا ولا تأثرًا. ليس تقسيمًا حديًا بهذا المعنى، بل هو تقسيم إجرائي لا يمتنع معه أن تكون علاقة كل فرع منها بالآخر علاقة تفاعلية، ولا ينتفي في رحابه تغذية كل قسم لقسيمه والاغتذاء منه، هو تقسيم إجرائي حمل عليه ما غلب على كل قسم من ارتباطه بما تحته من عناصر. فالمقاصد المعرفية إنما تخاطب ما في الإنسان من ملكة الإدراك، وتستثير منه دواعي الفكر والوعي، وتحرضه على طلب الحقائق المتعلقة بالخلق اكتشافًا، وبالخالق توحيدًا، تلك الحقائق التي يصبح التصديق بها هداية، والتيقن بها إيمانًا؛ ولذلك ضمنتها مقصدين: الهداية، والعلم.

والمقاصد الوجدانية: هي تلك التي تستهدف من الإنسان جانبه الفطري، بما استقر فيه من إدراكات ومشاعر داخلية قد لا تتطلب دليلًا ولا برهانًا على أصل وجودها، وإن احتاجت إليه في معرفة صورها، وصحة اتجاهها.

فلا ينكر أحد المحبة الفطرية للعدل، وإن اختلف الناس في مقاييسه وصوره، وكذلك الشعور بالجمال، والرغبة في الحرية، ومحبة الخير وكراهية الشر، واستملاح الفضيلة واستقباح الرذيلة، حتى لو تلبس البعض بتلك الرذائل، فإن ذلك لا يعدوا كونه مجرد عارض على المحبة الفطرية للتزكية والفضيلة، وذلك على حد قولهم:

أحب الصالحين ولست منهم عساني أن أنال بهم شفاعة
وأكره من بضاعته المعاصي وإن كنا سواء في البضاعة

أما المقاصد الاجتماعية: فهي تلك التي تستهدف من الإنسان نشاطه الخارجي، وسلوكه الظاهري الذي تنتظم به علاقته بالأشياء والأحياء على السواء، مما يسلم معه معاش الإنسان واجتماعه.

فانتظام الإنسان الفرد ضمن المجموعة البشرية، وما يمثله ذلك من مفهوم الأمة الواحدة وحسن تفاعله مع المادة واستثماره لها، بما يفضي إليه ذلك من وجوه العمران، وانتفاضة الإنسان لتقويم وإصلاح ما قد يفسده أخوه الإنسان من وجوه العمران، أو نظم الاجتماع ... كل ذلك أمور ضرورية تتعلق في الأعم الأغلب بالسلوك الخارجي للإنسان، وشئون

اجتماعه البشري؛ ولذلك ضمّنت هذا القسم أربعة مقاصد هي:(العمران – الإصلاح – السلام العالمي – وحدة الأمة).

وعلى أيه حال فالأمر لا يعدو كونه تقسيمًا إجرائيًا، حمل عليه الداعي الذي ذكرتُ، فإن حالفني التوفيق فيما صنعت فله الحمد والمنة، وإلا فالصدر منشرح لما كان أحسن من هذا التقسيم وأدق.

* * * * * * * * * * *

المطلب الأول: مقصد الهداية

ما نقصده بالهداية: إرشاد الدعاة لذلك التصور الكلي الذي رسمه الإسلام لتحديد علاقة الإنسان بخالقه إيمانًا وإحسانًا، وصلته بالكون تسخيرًا وعمرانًا، وعلاقته بذاته تكريمًا واستخلافًا، وموقفه من الجماعة الإنسانية تعارفًا وإخاءً

وهذا المضمون للهداية هو ما يمثل الثابت من حياة الإنسان، ذلك الثابت الذي لا يأتي عليه الزمن بتغيير أو تبديل، ولا يصيب منه تقدم العلوم بنقص أو بطلان، بل إنه التصور الذي لا يزيده مرور الزمن إلا ثباتاً، ولا تطور العلوم إلا رسوخاً وتأكيداً.

وبالجملة فالهداية الدعوية هي تجلية الدعاة لموقف الإنسان من الوجود بقسميه: المنظور وغير المنظور، أو موقفه من عالم الغيب وعالم الشهادة وفق التصور الإسلامي، مستخدمين في ذلك ما أرشد إليه الإسلام من أساليب الدعوة لتلك الأمور، وذلك من نحو: ضرب الأمثال، وتصريف الأقوال، وإيراد الحجج، وإقامة البراهين، والوعظ الحسن، والجدال بالتي هي أحسن... وغير ذلك من وجوه الاستدلال على صحة ما دعا إليه الإسلام من القضايا الإيمانية الكبرى، والأصول الاجتماعية العظمى، والفضائل الأخلاقية المثلى، والقواعد العمرانية العليا.

ومعنى هذا أن الدعاة يستهدفون تقديم التصور الإسلامي الثابت عن تلك الأسئلة الوجودية الفطرية الكبرى التي لا يجد لها الإنسان جوابًا شافيًا إلا في ظلال دعوة الإسلام.

فالسؤال عن الكون ونشأته, وسببه وغايته، وكذلك السؤال عن الإنسان: كيف خُلق؟ ومما خلق؟ وما الغاية من وجوده؟ وما المصير الذي ينتظره بعد موته ؟ والسؤال عن الخالق وصفاته, ومراده من خلقه, وما يجب في حقه, وما يجوز, وما يستحيل. والأسئلة عما وراء الطبيعة، وعالم الغيب عموماً.

كل هذه الأسئلة الوجودية وغيرها لا تجد لها جوابًا إلا في ظلال الدعوة، ولا يستطيع علم، أو فلسفة أن تأتي بجواب كافٍ في هذا المجال، بل إن الذين حاولوا الإجابة عنها بعيداً عن هداية الوحي قد أتوا بالعجائب، والتناقضات العقلية، حتي الفلاسفة الكبار، إذ منهم من أنكر وجود الله أصلاً، ومنهم من قال بوجوده لكنه الوجود السلبي الذي لا يملك

معه ذلك الإله القدرة على إدارة ذلك الكون ولا العلم بجزئياته؛ لانشغال عن ذلك بذاته، وعقيدة أرسطو في الإله أكبر مثال على هذا[1].

ومن هؤلاء من قال بتعدد الآلهة، حتى جعلوا للخير إلهاً وللشر إلهاً آخر. ومنهم من قال بالحلول والاتحاد، والتناسخ ..... إلى غير ذلك من هذا الركام الذي كان حصيلة العلم بتلك الأمور الوجودية عن طريق العلم والفلسفة العقلية وحدهما بعيداً عن الدين وتعاليمه المعصومة التي قدمها الأنبياء جميعًا إجابة عن تلك الأسئلة التي لفت النظر فيها أن أحدهم لم يناقض أخاه في الجواب عنها كما فعل الفلاسفة، رغم التباعد بين الرسل من حيث الزمان والمكان. وسر ذلك الاتفاق في الجواب كان كامناً في اتحاد مصدر التلقي لدى الأنبياء جميعاً، حيث الوحي المعصوم من قبل الله رب العالمين. **{إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} [النساء: ١٦٣].**

الهداية الإرشادية والهداية التوفيقية: ورد في تفسير الإمام الثعلبي (ت ٤٢٧هـ): الهدى في القرآن على وجهين: الوجه الأول: هدى دعاء وبيان كقوله: **﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]**، وقوله: **﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]** و **﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾ [فصلت: ١٧]**. الوجه الثاني: هدى توفيق وتسديد كقوله: **﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [النحل: ٩٣]** ، وقوله: **﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]**.[2]

وهداية والإرشاد هي وظيفة الدعاة إلى الله تعالى يخلفون فيها الإنبياء والمرسلين، فيدعون الناس إلى خالقهم، ويبلغونهم الإسلام، ويقومون على شرحه وبيانه، بما يستلزمه ذلك البيان من أساليب فنية تتضمن في ما تتضمن: ضرب الأمثال, والموعظة الحسنة، والوعد والوعيد، والجدال بالتي هي أحسن، وسوق الأدلة، وإيراد الحجج... إلى غير ذلك مما تحتاجه تلك الصناعة الدعوية المتكاملة.

وأما هداية التوفيق والسداد فهي ذلك الفضل الذي يكرم الله به عباده الذين استجابوا لنداء الهداية الإرشادية، بحيث يحرك في نفوسهم بواعث الإيمان، ويحبب إليهم اتباع الحق

---

١ – انظر: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، عباس محمود العقاد، نهضة مصر للنشر، بدون طبعة، ص٣٨

٢ – الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (ت ٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢٢، هـ – ٢٠٠٢ م، ص١١٩، ج١.

لعلمه أخذهم بالأسباب؛ ولذلك يقول سبحانه: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} **[العنكبوت: ٦٩]**.

الهداية الإرشادية نوعان: **عامة وخاصة**: هذا والملاحظ من سياقات الهداية البلاغية الإرشادية انقسامها إلى نوعين:

النوع الأول: الهداية العامة، وهي التي تعني ضرورة شرح الإسلام للناس كل الناس، وإبلاغه للإنسان باعتباره إنسانًا، بحيث لا يقف ذلك البلاغ على المؤمنين من الجماعة الإسلامية وحدها، بل يتسع ليشمل الجماعة الإنسانية كلها مؤمنها وكافرها. ففي بيان الحكمة من نزول القرآن الكريم يقول سبحانه: **{شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ } [البقرة: ١٨٥]**. بل ربما جمعت الآية الواحدة من القرآن الكريم بين نوعي الهداية الإرشادية (العامة والخاصة) في سياق واحد، ومن ذلك قوله سبحانه: **{هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: ١٣٨]، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ} [يونس: ٥٧]**، وقال سبحانه: **{وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} [الأنعام: ١٩]**.

فالقرآن على ضوء هذه الآيات "هدى للناس" و"بيان للناس"، و"موعظة للناس"، و"إنذار للناس"، وذلك بما دل عليه من قواعد إنسانية عامة تتعلق بأصول الاجتماع، ونظم العمران، وقواعد الفكر، وكليات الشرائع، وأمهات الفضائل .

ومما يدل على عناية القرآن بتلك الهداية الإرشادية العامة أمور:

أ- براءة القرآن الكريم من النداءات ذات الطابع القومي العنصري، بحيث لا تجد فيه نداءً واحدًا مستقلًا بأمة خاصة، حتى ولو كانت تلك الأمة هي الأمة العربية التي نزل القرآن بلسانها، وتجلت آياته على أرضها.

ب- شمول القرآن – إضافة لما سبق – للنداءات الإنسانية العامة من نحو: **{يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ} [الانشقاق: ٦]، { يَا بَنِي آدَمَ} [الأعراف: ٢٧]، {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ}** [آل عمران: ٧١]، **{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ} [البقرة: ٢١]**.

ج- دعوته للوحدة الإنسانية الجامعة التي تذوب في ظلها كل فوارق العرق واللون واللغة ويصبح الناس تحت لوائها إخوانًا.

د- اعتبار العقل الإنساني المادة الأولى للاستدلال على صحة القرآن والتصديق به ، والإيمان بالله الذي أنزله

هـ- ما دل عليه القرآن من مساواة إنسانية، وتشريعات قانونية عامة تفي بحاجة البشرية المتطورة ... إلى غير ذلك مما هو دال على ملائمة القرآن للفطرة، وإشباعه للوجدان، وإقناعه للعقل، وتلبيته لحاجة الاجتماع البشري في أرقى مراحل تطوره.

النوع الثاني: الهداية الخاصة، وهي مجموعة التوجيهات والآداب اللازمة لتنظيم علاقة المؤمنين بالإسلام باعتبارهم جماعة ذات طابع خاص، يلزم لها من التوجيهات ما ينظم شئونها، ويحفظ عقيدتها وهويتها، بحيث تغدوا مع ذلك جماعة مستلهمة التشريع الرباني في كل شئونها الدينية والدنيوية.

وفي شأن الهداية الخاصة يقول سبحانه: **{ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة: ٢]**، ويقول: **{وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ} [الإسراء: ٨٢]**.

ويبقى القول أن إشارة القرآن الكريم للهداية الإرشادية بنوعيها (العام والخاص) تفرض على الدعاة إعداد العُدة لكل نوع منهما بما يلائمه ، بحيث تنتقى الأساليب، وتُطرح المضامين الدعوية الصالحة لكل نوع دون خلط، بحيث تصبح الهداية العامة كمقدمة خادمة للهداية الخاصة؛ إذ بالهادية العامة يقف غير المسلمين على حقيقة الإسلام وجوهر مقاصده بما يقتنعون معه بقدرته على تلبية أشواق النفس الإنسانية، وتدبير شئون الحياة الاجتماعية في مراحل تطورها المختلفة، ثم تبقى بعد ذلك هدايتهم التوفيقية لدخولهم الإسلام بيد الله وحده، لا يملك الدعاة منها شيئًا؛ حيث لا يكلفون بغير البلاغ الواعي الحكيم، التزامًا بقوله تعالى: **{ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يوسف: ١٠٨]**.

أهم عناصر هداية البلاغ: هذا ولئن كانت عناصر الهداية ومفرداتها, وفق هذا المفهوم متعددة, فإن أهم تلك العناصر هو ذلك المضمون الثلاثي الذي دلت عليه سورة البقرة في مفتتحها, المتمثل في الإيمان بالله, والنبوات, واليوم الآخر. ففي بدء السورة الكريمة يقول تعالى: **{الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[البقرة: ١ – ٥]**، فإذا استثنينا الصلاة والزكاة باعتبارهما تكليفا ينبني على أصله الاعتقادي من الإيمان بالله تعالى تصبح عناصر الهداية وركائزها متمثلة في:

١- الإيمان بالغيب، وأصله وأوله الإيمان بالله وهو المشار إليه بقوله: **{الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ}**.

٢- النبوات، المشار إليها بقوله: **{وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ} [البقرة: ٤].**

٣- اليوم الآخر وهو المشار إليه بقوله: **{ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} [البقرة: ٤].**

تلك هي أهم عناصر الهداية التي تستهدفها الدعوة الإسلامية, بل إن تلك العناصر الثلاثة هي التي اعتبرها الإمام الشوكاني المحاور الكبرى التي انتظمت حولها سور القرآن الكريم كلها, وفي ذلك يقول رحمه الله :" وَأما مَقَاصِد الْقُرْآن الْكَرِيم الَّتِي يكررها ويورد الْأَدِلَّة الحسية والعقلية عَلَيْهَا، وَيُشِير إِلَيْهَا فِي جَمِيع سوره، وَفِي غَالب قصصه وَأَمْثَاله، فَهِيَ ثَلَاثَة مَقَاصِد، يعرف ذَلِك من لَهُ كَمَال فهم، وَحسن تدبر وجودة تصور، وَفضل تفكر. الْمَقْصد الأول: إِثْبَات التَّوْحِيد. الْمَقْصد الثَّانِي: إِثْبَات الْمعَاد. الْمَقْصد الثَّالِث: إِثْبَات النبوات".[١]

الإيمان بالله أصل الأصول: ولا شك أن أهم تلك الأصول الثلاثة هو الإيمان بالله وتوحيده؛ لما يتفرع عنه من الإيمان بالنبوات، واليوم الآخر، فمن آمن بالله وصفاته من العلم والحكمة علم أن مقتضى ذلك أن يرسل الله للخلق رسلاً، يعرفونهم عن الله ما لا تبلغه العقول، وأن ينزل على عباده كتبا يضمّنها ما به صلاحهم في الدنيا والآخرة. وكذلك الإيمان بالآخرة هو فرع الإيمان بالله وعدله المقتضي إثابة الصالحين, وعقاب الطالحين, وعدم التسوية بين من بسط يده للخلق بالمعروف, ومن مدها إليهم بالسوء والعدوان.{ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} [الجاثية: ٢١].**

فالإيمان بالله وتوحيده أصل الأصول, وهو غاية كل مأمول, إذ هو- جل شأنه- الخالق لهذه الموجودات جميعاً من فرشها إلى عرشها، ومنه تستمد الخلائق وجودها، وإلى جنابه تستند في بقائها وحفظها، فهو الصمد الذي يلجأ إليه كل شيء، وهو القيوم الذي قام به كل شيء، ولولاه ما كان شيء؛ فلا غرو أن تكون معرفة الله تعالى، وإفراده بما يستحق من العبادة على رأس مقاصد الدعوة. وما أحسن تفسير مجاهد من – التابعين – لقوله

---

١ – إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات, المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ),ص٣، المحقق: جماعة من العلماء بإشراف الناشر, الناشر: دار الكتب العلمية – لبنان, الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م,

تعالى:{**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦]**، حيث فسّر العبادة بالمعرفة فقال: إلا ليعرفونِ"[١] !

بل وما أجمل ما قاله الإمام الشافعي: "جَمِيعُ مَا تَقُولُهُ الْأُمَّةُ شَرْحٌ لِلسُّنَّةِ وَجَمِيعُ السُّنَّةِ شَرْحٌ لِلْقُرْآنِ وَجَمِيعُ الْقُرْآنِ شَرْحُ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلْيَا زَادَ غَيْرُهُ: وَجَمِيعُ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى شَرْحٌ لِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ".[٢]

وكذلك يقول الإمام ابن القيم في بيانه مقصود دعوة الإسلام:" إن الرسالة لها مقصودان عظيمان: أحدهما: تعريف العباد بربهم ومعبودهم بما هو عليه من الأسماء والصفات. والثاني: محبته وطاعته والتقرب إليه".[٣]

لقد كانت الدعوة إلى توحيد الله – تعالى– المهمة الأولى لكل رسول، بها جاء، ولأجلها كافح، وفي سبيلها خاصم وجادل حتى أصابه ما أصابه.

قال تعالى: {**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ** } **[الأنبياء: ٢٥]**.

محاور بين يدي الدعاة لتحقيق مقصد الهداية

هذا وفي سبيل السعي لتحقيق مقصد الهداية تجدر الإشارة إلى هذه المحاور:

١– الحرص على عرض الهداية المبرهنة؛ ذلك أن الهداية التي تستهدفها الدعوة الإسلامية هداية يقوم على صدقها الدليل، ويشهد لسلامتها البرهان. فليست هي مما يقال للمرء حيالها: (اعتقد وأنت أعمى) أو (أغمض عينيك واتبعني) ، بل هي الهداية التي تجعل شعارها: **{فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ**

---

١ – انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن, أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفى: ٤٢٧هـ), تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور, مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي, الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان, الطبعة: الأولى ١٤٢٢، هـ – ٢٠٠٢ م, ج٩, ص١٢٠

٢ – البرهان في علوم القرآن، المؤلف: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ)، ص٦، ج١، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه (ثم صوَّرته دار المعرفة، بيروت، لبنان – وبنفس ترقيم الصفحات)

٣ – الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة,محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ),المحقق: علي بن محمد الدخيل الله, الناشر: دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية, الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ, ج٣, ص١١٥٥

مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ} [محمد: ١٩].هكذا..! فاعلم، وليس فاحفظ أنه لا إله إلا الله؛ ذلك أنّ الهداية التي تقصدها الدعوة لابد أن تكون حصيلة فهم ودراسة، لا حصيلة تقليد ووراثة.

يقول الإمام محمد عبده: " الإيمان يعتمد اليقين, ولا يجوز الأخذ فيه بالظن, والعقل هو ينبوع اليقين في الإيمان بالله وعلمه وقدرته, والتصديق بالرسالة, والنقل ينبوع له في ما بعد ذلك من علم الغيب كأحوال الآخرة وفرض العبادات وهيئتها, وإن العقل إن لم يستقل وحده في إدراك مالا بد فيه من النقل فهو مستقل لا محالة في الاعتقاد بوجود الله, وبأنه يجوز أن يُرسل الرسل فتأتينا عنه بالمنقول".[١]

ولولا أهمية الدليل وضرورة اعتماده لتحقيق الهداية لما حضّ عليه القرآن الكريم في أكثر من سياق، وذلك من نحو قوله: **{قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}** [البقرة: ١١١]، وقوله سبحانه: **{ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}** [المؤمنون: ١١٧]. كما قال جلت حكمته على لسان الفتية المؤمنة– التي كان إيمانها ثمرة للدليل– وهم يستنكرون على قومهم: **{هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا}** [الكهف: ١٥].

لقد كانت تلك الآيات المحرّضة على طلب الدليل، وغيرها من الآيات الناعيات على التقليد واتّباع الآباء دون برهان هي مستند علماء المسلمين في اعتبارهم عدم كمال إيمان المقلد، حتى قالوا في ذلك :

وكل من قلد في التوحيد إيمانه لا يخلو من ترديد

ذلك أنَّ إيمان المقلد– وإن كان صحيحاً في الجملة– لا يستطيع صاحبه أن يقوم لشبهة، ولا أن ينهض لمقاومة شهوة؛ لأن الشبهات لا يردها إلا عقيدة رسخها البرهان في نفوس أصحابها، والشهوات لا يقاومها إلا معرفة بالله قد أثمرت محبة له، وإجلالا لجنابه، حتى تُستصغر معها قوة الشهوة، وتبدو ضعيفة أمام قوة المحبة وجلال الرهبة من الله في النفوس.

٢– الحرص على الهداية الميسرة؛ ذلك أن الهداية الدعوية تمتاز بيسرها، كما أن الأدلة والبراهين التي تعتمد عليها ليست براهين يعجز العقل عن إدراكها، أو يقف عاجزاً عن استيعابها؛ لأنها أدلة واضحة لا تتناقض فيما بينها، ولا تشتمل على مستحيلات عقلية كالقول بأن الواحد ثلاثة، والثلاثة واحد، مثلا.

---

[١] – **الإسلام بين العلم والمدنية, محمد عبده, دار المدى للثقافة والنشر ٢٠٠٢م, الطبعة الأولى ١٩٩٣م, ص١١٣**

إنها هداية تعتمد على أسلوب القرآن الكريم السهل الواضح، لا أسلوب العلوم الفلسفية التي تقيدها المصطلحات، ولا العلوم الجدلية التي تعقدها الرسوم والرموز. وكم حذر العلماء الربانيون من عرض هدايات الإسلام بتلك الأساليب الجدلية العقيمة، التي تقف عند حدود الممارسة الذهنية الجافة، دون أن تتسلط على الإرادة فتحييها، أو تميل إلى الوجدان فتشبعه، أو تتوجه إلى السلوك فتضبطه، كما هو الحال في طريقة القرآن في عرض هداياته.

٣- الحرص على عرض الهداية المفعّلة، والقصد من ذلك أن يحرص الدعاة على السماح لتلك الهداية بالخروج من حيز التصور والفكر إلى ممارسة حقها وانعكاسها على ميدان النفس الإنسانية والحياة الاجتماعية؛ وإلا فالهداية الإسلامية بطبيعتها لا تقبل بالبقاء حبيسة الصدور أو الرؤوس، دون أن تبسط سلطانها على الشعور والسلوك.

فشهادة " لا إله إلا الله" مثلاً ليست مجرد كلمة أو عبارة بقدر ما هي دلالة وعنوان على جملة من القيم اللازمة لاستقامة الحياة وتطويرها.

فـ " لا إله إلا الله" في بعدها النفسي هي تحرير للوجدان من كل مظاهر الرق والأسر الداخلي، بحيث لا يبقى معها مكان في النفس للخوف إلا من الله، ومحل للتوكل إلا عليه، وموقع للاستعانة إلا به، ومجال للرجاء إلا فيه، وميدان للسعادة إلا في رحابه. وتلك الخصائص النفسية وحدها هي الكفيلة بإمداد الإنسان بالقوة الروحية التي يحتمل بها الإنسان البلايا، ويستروح في ظلها النضال والكفاح في سبيل الله.

و " لا إله إلا الله" في بعدها الاجتماعي عدالة ومساواة؛ لأنها شهادة بأن أحداً لا يتميز على أحد من البشر، بل الجميع سواسية في عبوديتهم لله وحده، ولا مجال مع تلك الشهادة لأن يستعبد أحد أحدًا، أو يتعالى عليه. فالله وحده هو المتفضل على الجميع بالخلق والإعداد، والرزق والإمداد.

إنها إعلان إسلامي عن مساواة وعدالة اجتماعية، لكنها عدالة تتجاوز مرتبتها الدنيا، حيث المطالبة بالمساواة بين الناس في لقمة الخبز ورغيف العيش، إلى العدالة في صورها العليا، والمساواة في معناها الأسمى، حيث المناداة بالتساوي في الكرامة، والحرية، حتى لا يتخذ الناس بعضهم بعضاً أربابًا من دون الله.

لمثل هذه المعاني النفسية والحضارية كانت " لا إله إلا الله" في نظر الإسلام أفضل الذكر، وخيراً من التصدق بالذهب والورِق، بل كانت أفضل ما نطق به الرسول- صلى الله عليه وسلم- والنبيون من بعده كما جاء في الأحاديث.

المطلب الثاني: مقصد العلم

ما نعنيه بالعلم: ليس المقصود بالعلم والمعرفة في هذا الباب مجرد الرغبة في تحصيل المعلومات, أو التنافس في الاستحواذ على أكبر قدر منها, ثم لا تلبث بعد ذلك إلا أن تكون مادة للترف الذهني. ليس المقصود هذا, مع التأكيد على أهمية المعلومات واعتبارها المدخل الصحيح للفكر السليم, وإنما المقصود بالعلم ما هو أعم من ذلك وأشمل, المقصود هو نمط التفكير, وطريقة التعامل مع الأمور بما يسمح للعقل أن يمارس سلطته وسلطانه في تفهم المعقولات وتحليلها, والبحث عن علل الأشياء وأسبابها, والتعاطي مع الأقوال والأفعال على مقتضى ضروريات المنطق ومسلماته. ذلك هو العلم الذي يستلزم على الدعاة استدامة التحريض على الأخذ بأسبابه؛ تمهيدًا لمحاربة الجهل، والقضاء على منافذ الخرافة التي تصيب الناس في دينهم ودنياهم.

ذلك هو العلم الذي حضّ عليه الله تعالى في كتابه بقوله: {اقْرَأْ} **[العلق: ١]**, وأقسم سبحانه بآلته بقوله: **{ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ} [القلم: ١]**, ومدح أهله بقوله: **{قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الزمر: ٩]**, كما هو الذي أمر الله بطلب الاستزادة منه بقوله: **{وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا } [طه: ١١٤]**.

الاتجاهات الأربعة للعلم: على أن العلم الذي تستهدفه الدعوة ويحرص الدعاة على الحض عليه إنما يُنظر إليه من حيثيات أربع: من حيث كونه طاعة وعبادة, ومن حيث كونه حرفة وصناعة, ومن ناحية كونه خلافة وعمارة, ومن جهة كونه حماية ووقاية. وفيما يلي بيان مجمل لهذا:

الاتجاه الأول: **العلم من حيث كونه طاعة وعبادة**: ونعني به ضرورة اعتبار العلم وسيلة لمعرفة الله – تعالى – والاهتداء إلى وجوده, والإيمان بشرعه ودينه, وذلك ما أراده الله بقوله: **{ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ } [محمد: ١٩]**. ومعنى هذا أن العلم بالله لا بد أن يكون ثمرة البحث والدراسة, لا حصيلة التقليد والوراثة؛ والله تعالى يقول: **{ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} [آل عمران: ٧٩]**.

وكم من آية حرضّت العقل على أن يتخذ من موجودات الكون وعوالمه مادة للتعرف على الله – تعالى – بعد البحث والدراسة, وفي مثل ذلك يقول الله تعالى: **{وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ } [الروم: ٢٢]**. ويقول سبحانه:**{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**

وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [البقرة: ١٦٤].

العقل والعلم إذًا هما سبيل الاعتقاد الجازم, والإيمان المبني على اليقين، وفي ذلك يقول الإمام الحارث المحاسبي:" وَاعْلَم أَنه مَا تزين أحد بزينة كالعقل وَلَا لبس ثوبا أجمل من الْعلم لِأَنَّهُ مَا عُرف الله إِلَّا بِالْعقلِ وَلَا أطيع إِلَّا بِالْعلمِ"[١].

وما لفت النظرَ إليه الإمامُ المحاسبي من اعتبار العلم والعقل إمامًا لمعرفة الله هو ما أكد عليه الإمام الغزالي بقوله:" من كذّب العقل فقد كذب الشرع، إذ بالعقل عرف صدق الشرع، ولولا صدق دليل العقل لما عرفنا الفرق بين النبي والمتنبي، والصادق والكاذب، وكيف يكذّب العقل بالشرع، وما ثبت الشرع إلاَّ بالعقل".[٢]

وكما لا يثبت الشرع إلا بالعقل، فكذلك لا يقف المكلف على مقاصد الشرع بعد ثبوته، ولا تتكشف له أوجه هداياته إلا بالعقل المهتدي بنور العلم والوحي.

الاتجاه الثاني: **العلم من حيث كونه حرفة وصناعة**: وهو ما يعني أن العلم من بعض وجوهه عملية منظمة تستلزم وجود العالم, والمتعلم, ووضع المناهج والمقررات, ورسم البرامج والسياسات، واحترام التخصصات العلمية المختلفة, بحيث لا يُستفتى في كل مجال إلا أهله, ولا يسأل في كل ميدان إلا فرسانه, هذا العلم من هذا الوجه هو ما نبّه إليه القرآن الكريم بقوله:**{فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل: ٤٣].**

كما أن القرآن هو الذي حرّض على العناية بتلك الصناعة العلمية التخصصية بقوله: { **فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [التوبة: ١٢٢].** فهذه الآية دعوة لانتداب مَن يقوم به فرض الكفاية في كل مجال, وإن أتى على رأس تلك المجالات الفقه في الدين.

ثم إن القرآن الكريم لا يفتأ يذكّر بأهم المناهج العلمية اللازمة للصناعة العلمية التي تثمر علمًا صحيحًا، حتى إن علماء المسلمين قد فطنوا لأصول تلك المناهج من إشارات القرآن الكريم, وذلك كتأصيلهم للمنهج التجريبي القائم على البرهان والملاحظة من مثل قوله

---

[١] – رسالة المسترشدين, الحارث بن أسد المحاسبي، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٤٣هـ), المحقق: عبد الفتاح أبو غدة, الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب – سوريا, الطبعة: الثانية، ١٣٩١ – ١٩٧١ص٩٧

[٢] – قانون التأويل، الإمام أبو حامد الغزالي ، ص١٩، الطبعة الأولى، بدون اسم، ١٤٣١٣هـ-١٩٩٣م، تحقيق: محمود بيجو.

تعالى: {**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } [**البقرة: ١١١**], وقوله:{**وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ**} [**الزخرف: ١٩**]. وتأصيلهم كذلك للمنهج الاستنباطي اهتداء بقوله تعالى: { **فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ**} [**الحشر: ٢**]. كما أصّلوا للمنهج التوثيقي والتاريخي انطلاقًا من مثل قوله تعالى: { **كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**} [**آل عمران: ٩٣**], وقوله جل شأنه: { **ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**} [**الأحقاف: ٤**].

وإنما وجب التنبيه إلى العلم باعتباره صنعة لأن في ذلك قطعًا للطريق على أولئك الذين يلجون أبوابًا من المعرفة بغير أدواتها، ويفتون في مسائل علمية دون دراية بفنون معالجتها، مما يفضي إلى انحراف في الفكر، والخطأ في الفهم، لا سيما في الأخذ عن الإسلام والتعاطي مع نصوصه.

يقول الإمام ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ):" إنّ العلم صدر الإسلام والدّولتين لم يكن بالجملة صناعة إنّما كان نقلا لما سمع من الشّارع وتعليما لما جُهل من الدّين على جهة البلاغ، فكان أهل الأنساب والعصبيّة الّذين قاموا بالملّة هم الّذين يعلّمون كتاب الله وسنّة نبيّه صلّى الله عليه وسلّم، على معنى التّبليغ الخبريّ لا على وجه التّعليم الصّناعيّ إذ هو كتابهم المنزل على الرّسول منهم وبه هداياتهم، والإسلام دينهم، قاتلوا عليه وقتلوا، واختُصّوا به من بين الأمم وشُرّفوا فيحرصون على تبليغ ذلك وتفهيمه للأمّة لا تصدّهم عنه لائمة الكبْر ولا يزعهم عاذل الأنَفَة ويشهد لذلك بعث النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كبار أصحابه مع وفود العرب يعلّمونهم حدود الإسلام وما جاء به من شرائع الدّين بعث في ذلك من أصحابه العشرة فمن بعدهم. فلما استقرّ الإسلام ووشجت عروق الملّة حتّى تناولها الأمم البعيدة من أيدي أهلها واستحالت بمرور الأيّام أحوالها وكثر استنباط الأحكام الشّرعيّة من النّصوص لتعدّد الوقائع وتلاحقها فاحتاج ذلك لقانون يحفظه من الخطأ وصار العلم ملكة يحتاج إلى التّعلّم فأصبح من جملة الصّنائع والحرف"[١].

هكذا فرق ابن خلدون بين العلم التبليغي الخبري الذي كان ملكة خاصة بأصحاب الرسول – صلى الله عليه وسلم – ومن تبعهم من أجيال الأمة الأولى لقربهم من نزول الوحي،

[١] – **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، المؤلف: عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (المتوفى: ٨٠٨هـ)، ص٣٩، المحقق: خليل شحادة، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م.**

ومخالطتهم الرسول وأصحابه، وبين العلم الصناعي الذي أصبح ضرورة لسلامة الاستنباط من الإسلام والفهم عنه، خاصة بعد طول العهد بالرسول، ودخول الأعاجم في الإسلام، وضعف القريحة العلمية واللغوية بين كثير من المسلمين.

الاتجاه الثالث: **العلم من حيث كونه خلافة وحضارة**: والمقصود أن الإنسان لا يمكن أن ينهض بمهام الاستخلاف والعمران الذي كلفه الله به إلا عن طريق العلم, إذ الجهل لا يصنع حضارة, ولا يقيم عمرانًا. والقرآن الكريم وهو يشير إلى خلافة الإنسان الأول بقوله: **{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} [البقرة: ٣٠]**, لم ينس أن ينوّه بوسيلة تلك الخلافة وسبيلها وهي العلم؛ ولذلك قال:**{وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا } [البقرة: ٣١]**.

وكم أشار القرآن الكريم إلى تعليم الأنبياء الحرف والصنائع اللازمة للعمران فالله تعالى يقول في شأن نبي الله داود – عليه السلام –: **{وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ} [الأنبياء: ٨٠]**. وهي إشارة إلى أن العلم سبيل القوة والمنعة, ولذلك قال سبحانه في سياق آخر: **{وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [سبأ: ١٠، ١١]**.

وقد حكى القرآن الكريم كيف فاق صاحبُ العلم الجِنَّ والعفاريت في تطويع الأشياء وتسخيرها في النقل والمواصلات، حتى نقل عرش ملكة سبأ من اليمن إلى بلاد الشام في أقل من طرفة عين كما حكى القرآن الكريم في قوله تعالى:**{ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ} [النمل: ٤٠]**.

الاتجاه الرابع: **العلم من حيث كونه حماية ووقاية**: ويقصد بهذا الاتجاه اعتماد العلم كوسيلة لحماية الإنسان من كل ما ينال من كرامته, أو يصيب من مكانته الأدبية, حتى لا يصبح ذلك الإنسان جزءًا من قطيع يسيره الراعي أو يدفعه الداعي حيث يشاء, وإنما يكون العلم وسيلة للتمييز بين الصحيح والفاسد من المعتقدات, وبين الصادق والكاذب من الأقوال, وبين الضار والنافع من الأعمال, وبالجملة يصبح العلم وسيلة لحماية الإنسان ووقايته من أن يكون أسيرًا لأية سلطة غير سلطة الشرع الجاري على مقتضى العقول, سواء كانت تلك السلطة غريزية, أو دينية, أو دنيوية, أو غيرها من تلك الموانع الفكرية التي ردّها (العقاد) إلى أصول ثلاثة بقوله:" أكبر الموانع في سبيل العقل عبادة السلف التي تسمى بالعرف, و الاقتضاء الأعمى بأصحاب السلطة الدينية, والخوف المهيمن لأصحاب السلطة الدنيوية".[١]

[١] – التفكير فريضة إسلامية, عباس محمود العقاد, ص٢٢, دار القلم, الطبعة الأولى, بدون تاريخ

ومن أراد أن يدرك قيمة العلم في حماية الإنسان من ذل العبودية للشهوة والغرائز فليقرأ ما كان من أهل العلم حيال الثروة القارونية الطاغية, في مقابل ما كان من أهل الشهوات الذين سال لعابهم لخروج "قارون" مختالًا في ماله وزينته.

ففي الوقت الذي قال فيه أهل الغرائز وطلاب الدنيا:{ **يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [القصص: ٧٩]**، في ذلك الوقت كان أهل العلم يردون عليهم قائلين: **{وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ} [القصص: ٨٠]**.

كذلك من رغب في معرفة دور العلم في حماية الكرامة الإنسانية من آثار السلطة السياسية الجائرة, فليتأمل موقف أهل العلم من المؤمنين تجاه السلطة الفرعونية التي استهدفتهم بالتهديد والوعيد, بل بالقتل والتشريد، ومع ذلك كانوا يقولون في ثقةٍ:**{لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} [طه: ٧٢]**.

يقول الإمام الغزالي – مبينًا أثر العلم في حماية الكرامة والحرية الإنسانية–:" وقد عرفت أن ثمرة العلم القرب من رب العالمين، والالتحاق بأفق الملائكة ومقارنة الملأ الأعلى، هذا في الآخرة، وأما في الدنيا فالعز والوقار، ونفوذ الحكم على الملوك، ولزوم الاحترام في الطباع".[١]

العلم الذي يستهدفه الدعاة إذًا هو الذي يتجاوز حدود الترف الذهني، ويتخطى إطار الدراسات الأكاديمية المحضة ليشكل نوعًا من الوعي العام الذي تُستنهض به الأمة الإسلامية لاستعادة مجدها، ويستنفر به العقل لممارسة سلطانه في التمييز والتحليل، وتُسنبت به معاني الكرامة في النفس حتى تتسامى على نزواتها الأرضية. الوعي الذي يخالط الإرادة الإنسانية فيحييها، ويميل على السلوك فيضبطه, ويتجه نحو النفس فيحررها من كل قيود الخضوع لغير الله.

محاور بين يدي الدعاة على طريق العلم:

١– العمل على تعزيز ثقافة السؤال لدى المدعوين، وتشجيع الوعي النقدي عمومًا، بحيث يصبح المدعوون شركاء للدعاة في المعرفة بالإسلام، لا مجرد تابعين لهم ومقلدين.

٢– اعتماد الخطاب المقاصدي في الدعوة، واستدامة ربط الجزئيات والفرعيات بأمهاتها وأصولها؛ لتقديم رؤى شاملة ومتكاملة, مما يعين على فهم الإسلام، واستيعاب أسراره.

[١] – إحياء علوم الدين، مرجع سابق, ج١, ص١٢

٣- الحرص على عقلنة الخطاب الدعوي، وليس المقصود بالطبع بالعقلنة محاكمة العقل للشرع، بحيث يكون ما قبِله العقل منه مقبولًا ، وما يرفضه مرفوضًا، فذلك لا يقول به مسلم، وإنما القصد هو بيان أن ما جاء به الشرع ليس مخالفاً لما تقضي به العقول السليمة، فهناك فرق كبير بين جريان النصوص على مقتضى العقول – حيث إنها لا تأمر بمستحيل عقلي، ولا بما هو فوق الطاقة – وبين أن تكون النصوص مرهونة في الأخذ بها بموافقة العقل أو رفضه، خاصة وأن للعقل حدوداً هو نفسه يحكم بأنها فوق طاقته، وغير واقعه: تحت قدراته، وإتيان الشريعة بما فوق الطاقة العقلية شيء، وأمرها بما تحيله العقول شيء آخر !

يقول الشيخ رشيد رضا في بيانه أهمية عقلنة الخطاب الدعوي:" ولو كان فينا علماء كثيرون يظهرون الإسلام في صورته الحقيقية العلمية العقلية لدخل الناس المستقلون في العقل والعلم فيه أفواجًا حتى يعم الدنيا؛ لأن التعليم العصري في جميع مدارس الأرض يجرى على طريقة الاستقلال في الفهم واتباع الدليل في جميع بلاد الإفرنج والبلاد المقلدة لهم، ولكن أكثر هؤلاء يرون جميع الأديان تقليدية، ويعتدونها نظمًا أدبية واجتماعية للأمم، فلهذا يرون الأولى بحفظ نظامهم اتّباعهم دينهم التقليدي، وبهذا يعسر علينا أن نقنعهم بامتياز الإسلام على دينهم، لأنه يقل فينا من يقدر على إظهار الإسلام في صورته التي خصه بها القرآن، وما بيّنه من سنة خاتم النبيين صلّى الله عليه وسلّم وسيرة خلفائه الراشدين والسلف الصالحين، رضوان الله عليهم أجمعين."[١]

٤- تعزيز ثقافة الحوار والاختلاف, والعمل على سد منافذ التعصب, والانغلاق الفكري, وتبني منهجية الرأي الواحد.

٥- توعية الناس بضرورة الاتصال الثقافي, والانفتاح على الآخر, والتعامل مع ثقافة المخالفين في الدين من منطلق النقد لا الرفض.

٦- لعل من المهمات في هذا الشأن لفت النظر إلى ضرورة عناية الدعاة باللغة العربية, والحرص على نقل المدعوين إلى رحابها شيئا فشيئًا؛ إذ اللغة العربية هي مادة القرآن الأولى, وواسطة تفهم تراثنا وحضارتنا الأساسية, خاصةً إن كنا نريد مجابهة تلك الحملة الشرسة على لغة الإسلام, تمهيدًا لإقامة القطيعة بين المسلمين وكتابهم الأول القرآن الكريم.

[١] - الوحي المحمدي, ص٢٢٤, مرجع سابق.

المبحث الثالث:

المقاصد الوجدانية للدعوة الإسلامية

وفيه أربعة مطالب:

- **المطلب الأول: مقصد التزكية**
- **المطلب الثاني: مقصد العدل**
- **المطلب الثالث: مقصد الحرية**
- **المطلب الرابع: مقصد التربية الجمالية**

المطلب الأول: مقصد التزكيـــــــــــة

المقصود بالتزكية: بعيدًا عما دلّ عليه مفهوم التزكية في بعده اللغوي من معاني الطهر والنماء لما هو حسي أو معنوي, فإن ما نعنيه بالتزكية ضمن الحديث عن المقاصد الدعوية هو: تعاهد الدعوة وخطابها لذلك الكائن الإنساني ببرنامجها التربوي, ومشروعها الفضائلي بهدف تهذيب وجدانه وتنظيم سلوكه, بما يؤهله للقيام بمهمة الاستخلاف والعمران, وأداء واجبات الاجتماع الإنساني.

والتزكية بهذا المعنى إنما هي مشروع أخلاقي ضخم, ورؤية كبيرة لصناعة الإنسان[1] وبنائه, ذلك البناء الذي يتأسس على تهذيب النفس من داخلها, انطلاقًا من القاعدة التربوية القرآنية: **{إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد: ١١].**

وإنما كان تغيير الأمم مرهونًا بتغيير النفوس؛ لأن صلاح الأمم لن يتم دون صلاح الأفراد, والأفراد لا صلاح لهم إلا إذا صلحت نفوسهم بالتهذيب والتزكية. تلك التزكية التي وعد الله من تعاهد نفسه بها بالفلاح, وتوعد من أهملها بالخيبة والخسران؛ فقال سبحانه: **{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} [الشمس: ٩، ١٠].**

التزكية مهمة الأنبياء والمرسلين: ولولا ضرورة التزكية وأهميتها في صلاح النوع الإنساني وبنائه, ما جعلها الأنبياء والمرسلون على رأس أولوياتهم في علاقتهم بمدعويهم, ودعوتهم إياهم.

فسيدنا موسى – عليه السلام – كان يترفق في دعوته فرعون الطاغية ويدعوه إلى التزكية بقوله: **{ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى} [النازعات: ١٨، ١٩].**

ونبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – كانت التزكية واحدة من أهم خصائص رسالته الكبرى, حتى إن آيات أربعًا أتت صريحة في القرآن للنص على موقع التزكية من رسالة الرسول – صلى الله عليه وسلم – ودعوته العالمية. واحدة من تلك الآيات كانت تمثل دعاءً لنبيين كريمين– إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام – أن يمتن الله على هذه الأمة ببعثة رسولٍ يعمل على تزكيتها وتعليمها[2], وذلك في قوله تعالى: **{ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ**

---

[1] – مصطلح صناعة الإنسان لا غرابة فيه خاصةً وقد استخدمه القرآن الكريم في مثل قوله تعالى:{وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي} [طه: ٤١]. وقوله: {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} [طه: ٣٩]

٢ – أما الآيات الثلاث الباقيات فهي: الآية رقم ١٥١ من سورة البقرة، والآية ١٦٤ من سورة آل عمران، والآية رقم ٢ من سورة الجمعة.

يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [البقرة: ١٢٩].

وكما بين القرآن الكريم مهمة الرسول – صلى الله عليه وسلم – واعتمادها التزكية وسيلة رئيسة لتربية النوع الإنساني، فقد كشف الرسول – صلى الله علي وسلم – كذلك عن طبيعة تلك المهمة بأسلوب آخر، وذلك حين قال: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**»"[١]

بل لقد اعتبر الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن الغنى الإنساني الحقيقي إنما يتمثل في غنى النفس البشرية بجلمة الفضائل الأخلاقية ومجموعة السمات الوجدانية الإيجابية التي تضبط السلوك البشري، وتحكم التصرف الإنساني، وفي ذلك يقول – صل الله عليه وسلم –: «**لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ، وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ**»[٢]

الأخلاق الإسلامية عماد التزكية: لا أحد يعلم على الحقيقة ما يصلح الإنسان إلا الله, فهو خالقه وصانعه, ومن ثمّ فهو أعلم بما تتزكى به نفسه, ويطهر به داخله, وفي دعاء الرسول – صلى الله عليه وسلم – ما يدل على هذا، فقد كان كثيرًا ما يقول:" «**اللهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا**»[٣].

إذن لا سبيل للطهر والتزكية إلا عبر الطريق الذي رسمه الله لعباده, وبواسطة البرنامج الأخلاقي الذي أرشد الناس إليه, سواء أكانت تلك الأخلاق ربانية – من حيث تعلقها – أم إنسانية. فالربانية هي التي تمثل صلة الإنسان بربه, وتعزز علاقته به, وذلك من نحو: التوكل على الله, والخوف منه, والرجاء فيه, واليقين فيما عنده, وشكره على نعمائه, والرضا بقدره وقضائه.... إلخ.

أما الأخلاق الإنسانية فهي التي تنتظم بها علاقة الإنسان بأخيه الإنسان, بل بسائر الموجودات من حوله, من نبات، وحيوان، وجماد, وذلك كالصدق, والوفاء, والأمانة, وحفظ الجميل, والرحمة بالصغار, واحترام الكبار, إضافةً لكل ما يتعلق بالحفاظ على البيئة, وحسن التعامل مع مواردها وعوالمها عمومًا.

---

[١] – مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة رضي الله عنه، رقم: ٨٩٥٢، قال عنه شعيب الأرنؤوط: صحيح، وهذا إسناد قوي

[٢] – صحيح البخاري، كتاب: الرقاق، باب: الغنى غنى النفس، رقم: ٦٤٤٦

[٣] – صحيح مسلم, كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار, باب: بَابُ التَّعَوُّذِ مِنْ شَرِّ مَا عُمِلَ...., رقم ٧٣

فهذه المنظومة الأخلاقية الشاملة هي مواد التزكية ومفرداتها, وموضوعاتها التي أفرد لها القرآن الكريم مساحات واسعة من الحديث, سواء ما كان منها متعلقًا بالفضائل والأخلاق الحسنة التي يجب أن تتحلى بها النفس, كالتي وردت في بدايات سورة الأنفال, والمؤمنون, وكذلك الفرقان, والحجرات, وغيرها, أو ما كان متعلقًا بالحديث عن الرذائل والأخلاق السيئة التي يجب على النفس التخلي عنها, والتبرؤ من التلبس بها, وذلك كالتي نبّه عليها القرآن في سورة البقرة وصفًا للمنافقين, أو في سورة التوبة, أو النساء, أو سورة المنافقون... إلخ.

التزكية إذا بهذا البرنامج إعادة تشكيل وتصنيع لذلك الإنسان المستخلَف, حتى يعتاد العمل الصالح, وتنسجم تصرفاته مع مقتضيات الهداية التي سبقت الإشارة إليها, من الإيمان بالله والدار الآخرة؛ ذلك أن الأعمال الصالحة، والسلوك الفاضل إنما هو ثمرة الإيمان الصحيح بالله تعالى، ولازم من لوازم اليقين في لقائه سبحانه.

فالإيمان بالله منبع كل خير، وأصل كل جميل، وفي رحابه تتفجر ينابيع الفضائل الإنسانية كلها، وفي ظله يزكو الضمير، وتطهر النفس بما يمنعها من التلبس بما لا يليق من أنواع المظالم والمهالك؛ ولأجل هذا كان الأنبياء والمرسلون يتخذون من الإيمان بالله مفتاح الدخول للشخصية الإنسانية، والعمل على تهذيبها وضبط سلوكها، حتى نجحوا في ذلك نجاحًا لا يزال مثار دهشة لدى كل المربين والمصلحين.

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي:" لم يكن صلى الله عليه وسلم من عامة المصلحين الذين يأتون البيوت من ظهورها، أو يتسللون إليها من نوافذها، ويكافحون بعض الأدواء الاجتماعية والعيوب الخلقية فحسب، فمنهم من يوفق لإزالة بعضها مؤقتاً في بعض نواحي البلاد، ومنهم من يموت ولم ينجح في مهمته. أتى النبي صلى الله عليه وسلم بيت الدعوة والإصلاح من بابه، ووضع على قفل الطبيعة البشرية مفتاحه، ذلك القفل المعقد الذي أعيا فتحه جميع المصلحين في عهد الفترة، وكل من حاول فتحه من بعده بغير مفتاحه. ودعا الناس إلى الإيمان بالله وحده، ورفض الأوثان والعبادات والكفر بالطاغوت بكل معاني الكلمة وقام في القوم ينادي: ((يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا!)) ودعاهم إلى الإيمان برسالته، والإيمان بالآخرة."[1]

الأخلاق الوضعية لا تكون بديلة عن التزكية الإيمانية: ومما تجدر الإشارة إليه أن الدعوة الإسلامية بمشروعها التربوي للتزكية لا يقوم مقامها شيء من كل ما عرفه الناس من

[1] – **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، علي أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الندوي (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، ص١١٩، دار الجيل بيروت،١٤١١هـ_ ١٩٩١م، بدون رقم.**

وسائل التربية، ومناهج الإصلاح الإنساني إلى اليوم، لاسيما تلك المناهج ذات التوجه المادي المتنكر لهدي الرسالات السماوية. وخير شاهد على سلامة تلك الحقيقة الواقع المشاهد ذاته بنتائجه التي أفضت إلى إليها تلك المناهج، "التعليم وحده – مثلًا – لا يرقى بالناس ولا يجعلهم أفضل مما هم عليه أو أكثر حرية، أو أكثر إنسانية. إن العلم يجعل الناس أكثر قدرة، أكثر كفاءة، أكثر نفعًا للمجتمع. لقد برهن التاريخ على أن الرجال المتعلمين والشعوب المتعلمة يمكن التلاعب بهم بل يمكن أن يكونوا أيضًا خدّامًا للشر، ربما أكثر كفاءة من الشعوب المتخلفة. إن تاريخ الإمبريالية سلسلة من القصص الحقيقية لشعوب متحضرة شنّت حروبًا ظالمة استئصالية استعبادية ضد شعوب متخلفة أقل تعليمًا، كان أكبر ذنبهم أنهم يدافعون عن أنفسهم وحرياتهم. إن المستوى التعليمي الراقي للغزاة لم يؤثر على الأهداف أو الأساليب، لقد ساعد فقط على كفاءة الغزاة وفرض الهزيمة على ضحاياهم".[1]

إن المناهج التربوية المنقطعة عن هداية الإيمان ستظل عاجزة عن الوفاء بحاجة الإنسان للتزكية والتربية الصحيحة، خاصة وقد اجتمعت لها أمور، أهمها:

١- القول بنسبية الأخلاق الذي زعمته تلك المناهج المادية، وما أفضى إليه ذلك القول من تأرجح للفضيلة وتعرضها للتغيير والتبديل، بل والمساومة، مع أن، الأصل في الفضيلة هو ثباتها، دون اعتبار للتغير المكاني أو الزماني، وذلك راجع لثبات مصدرها، إضافة لثبات خصائص النفس الإنسانية ذاتها. وقد عاب الله تعالى من قبل على من تلاعب بالفضيلة إلى هذا الحد بقوله: **{وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران: ٧٥].**

٢- قصور تلك المناهج في التعامل مع ملكات الإنسان ومداخله، إذ الغالب عليها اعتمادها على جانب العقل، وتغليب الأخلاق النفعية، دون اهتمام بالجانب الروحي، وبذلك تظل تلك المناهج قاصرة عن إشباع الحاجات الإنسانية كاملة، لاسيما حاجات الأشواق الروحية.

٣- بناؤها لتلك المنظومة الأخلاقية على غير أساسها السليم وأصلها الصحيح من الإيمان بالله تعالى الذي خلق تلك النفس الإنسانية وأودعها – فيما أودعها – تلك الإرادة

[1] – الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجوفيتش، ص١٠١، مؤسسة العلم الحديث – بيروت، الطبعة الأولى، رجب ١٤١٤هـ_١٩٩٤م.

الإنسانية الواعية؛ ليصبح الإنسان بها مسئولًا عن أعماله ومتحملًا نتائج اختياره الواعي، كما يغدو بها متميزًا عن سائر المخلوقات التي تدفعها الغرائز المادية وحدها للعمل والسلوك دون اختيار منها أو إرادة.

يقول الأستاذ العقاد:" إن المسلم ليؤمن بمصدر هذه الأخلاق المثلى، ويؤمن بأنها جميعًا مفروضة عليه بأمر من الله.. ولكن المسلم وغير المسلم يستطيعان أن يقولا معًا إنها صفات لا ترجع إلى مصدر غير المصدر الإلهي، الذي تصدر منه جميع الأشياء، لأن مناطها الأعلى لم يتعلق بمنفعة المجتمع، ولا باستطاعة القوة، ولا بالقانون والسلطان، ولكنه تعلق بما في الإنسان من حب للجمال وشوق إلى الكمال، وكلاهما نفحة من الخالق يهتدي بها الأحياء عامة في معارج الرفعة والارتقاء"[1]

وصدق الله العظيم إذ يقول: **{وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [النور: ٢١].**

محاور بين يدي الدعاة لتحقيق التزكية

١- إعطاء أولوية للتركيز على القيم الحضارية التي تراجع الالتزام بها, أو توارى في حياة المسلمين, مما كان له أثره غير المحمود على واقعهم, وذلك كالاهتمام بقيم: (النظافة – التعاون – العمل – الحفاظ على البيئة – العناية بالمصلحة العامة – تقدير العمل الجماعي – احترام الوقت)

٢- اعتماد المنهج الإسلامي في التزكية, وذلك بربطه بين النظرية والتطبيق وتعزيز المعاني النظرية بالأشكال التدريبية والعملية, وليس أدل على ذلك من اعتماد العبادات في الإسلام كوسيلة عملية لتعزيز القيم, وتحقيق التزكية. فالصلاة ليتخلى العباد عن الفحشاء والمنكر، **{إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [العنكبوت: ٤٥].** والزكاة لتطهيرهم وتزكيتهم، **{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَ} [التوبة: ١٠٣].** والحج لتدريبهم على ترك المراء والفسوق والجدال، **{ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ } [البقرة: ١٩٧].** والصيام لتعزيز معاني التقوى وقيم المراقبة والخشية، **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [البقرة: ١٨٣].**

ومثل العبادات – في اعتبارها وسائل تدريبية لتحقيق التزكية – مجالس قراءة القرآن الكريم, والأذكار والأوراد المشروعة, والصلاة في جوف الليل, وصحبة الصالحين, والدعاء

[1] – الفلسفة القرآنية، عباس محمود العقاد، ص٢٩، دار الهلال، ١٩٦٦م، بدون رقم.

إلى الله, وغيرها من تلك الأساليب التي اعتمدها الإسلام كطرائق للتزكية, متميزًا بها عن تلك الأساليب الفلسفية الجدلية, التي لا تعدو كونها صناعة كلامية, وتقعيدات لفظية, لا أثر لها في إشباع وجدان, أو تحرير إرادة, أو ضبط سلوك.

٣- فتح باب الأمل أمام المدعووين باستمرار, وتحفيز مَنْ أيس منهم من صلاح نفسه, وظن أن لا أمل في استقامته؛ إذ لولا إمكانية التغيير للخُلق لما بعث الله الرسل, وما أنزل الكتب. والعادات إنما تتغير بالترويض الهادئ ومحاولات التربية المستمرة. وإذا كان الإنسان قد استطاع أن يروض الحيوانات المفترسة كالأسود, والثعابين, والتماسيح وجعلها تغير من عادتها, حتى وجدنا من يضع رأسه في فم التمساح ولا يصيبه, ومن يلقم الأسد يده ولا يؤذيه, ومن يغني للثعابين ويصفر لها فتلتف حول جسده التفاف العاشق بمعشوقه. إذا كان الإنسان قد نجح في تغيير أخلاقيات الحيوانات وعاداتها معتمدًا في ذلك على المِران والتدريب الهادئ, فكيف بالدعاة وهم أولى الناس بالصبر على مدعوييهم, وفتح أبواب الرجاء أمامهم, وإعمال الذهن في اختراع وسائل تزكيتهم وتقويم سلوكياتهم.

٤- الكف عن التشهير بأهل المعاصي والرذائل, فإن التشهير في ذاته رذيلة يجب اجتنابها, فضلًا عن كونه ذريعة أو مدخلًا للاستعلاء على الناس, واحتقار شأنهم, وهي كلها أمور لا تليق بمنهج الدعوة المبني على الموعظة الحسنة, والحكمة, والجدال بالتي هي أحسن.

٥- الحذر من المغالاة والتشدد في دعوة الناس إلى النوافل, وضرورة اعتماد المنهج الوسطي في التربية, الذي لا إفراط فيه يفضي إلى الملل والسآمة, ولا تفريط ينتهي إلى الفجور والندامة. يقول الإمام ابن القيم:" الْعَارِف لَا يَأْمر النَّاس بترك الدُّنْيَا، فَإِنَّهُم لَا يقدرُونَ على تَركهَا، وَلَكِن يَأْمُرهُم بترك الذُّنُوب مَعَ إقامتهم على دنياهم، فَترك الدُّنْيَا فَضِيلَة، وَترك الذُّنُوب فَرِيضَة، فَكيف يُؤمر بالفضيلة من لم يقم الْفَرِيضَة"[١]

٦- الإفادة من حصيلة الدراسات النفسية الصالحة, ونتائج العلوم التربوية النافعة في السعي نحو التزكية، إضافة لما يذخر به تراثنا الإسلامي من دراساتٍ جادة في مجال علم السلوك والتربية عمومًا. وتراث الإمام الحسن البصري، وكذلك الأئمة: الغزالي, وابن الجوزي, وابن القيم, وابن عطاء الله السكندري, غاية في الدقة والعظمة في هذا المجال.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

[١] - الفوائد, محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ), الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت, الطبعة: الثانية، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م, ص١٦٩

المطلب الثاني: مقصد العدل

العدل في الاصطلاح: ما نعنيه بالعدل في الاصطلاح الدعوي هو: المناداة بضرورة النزول على حكم ذلك المنزع الفطري الذي يشعر الإنسان في رحابه بالأمن والاستقرار، وتتفجر في ظله ملكات الإنسان وإبداعاته، ويأمن معه على كرامته فلا يخاف ظلمًا ولا هضمًا، وذلك كله وفق موازين الحقائق الشرعية، والضرورات العقلية.

وإنما كان العدل بحاجة إلى موازين" لأن العدل في الأساس مفهوم نسبي، لذلك من الضروري عندما يعتقد شخص ما أن له مطلبًا عادلًا أن يستند هذا المطلب – لكي يكون مشروعًا – إلى نظام عام قائم يستظل بظله، ميزان معترف به من موازين العدل"[1].

وليس هناك ميزان لمعرفة العدل أصدق من الشرع الصحيح، والعقل الصريح المهتدي بنور ذلك الشرع، والواقف عند حدوده.

الدعوة إلى العدل مقصود الأنبياء والمرسلين: لمّا كانت حياة الناس لا تستقيم إلا بالعدل، وكان من الضروري القيام بأعباء تطبيق ذلك العدل، وإلزام الناس به، بعد بيان صوره وموازينه، لمّا كان الأمر كذلك فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون العدل مقصود الرسالات السماوية جميعها، وفي بيان ذلك يقول الله تعالى:**{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحديد: ٢٥].**

وإن كانت الآية الكريمة قد دلت على مجيء الأنبياء بالكتاب بما يشتمل عليه من موازين العدل والحق، فقد دلت كذلك على أن القوة هي إحدى عناصر حماية العدل، واستيفاء الحق، ولذلك أردف الله الحديثَ عن القسط – وهو العدل – بالحديث عن الحديد فقال جل شأنه:**{وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ} [الحديد: ٢٥].**

جاء في مجموع الفتاوى:" ...فذكر – تعالى – أنه أنزل الكتاب والميزان، وأنه أنزل الحديد لأجل القيام بالقسط؛ وليعلم الله من ينصره ورسله، ولهذا كان قوام الدين بكتاب يهدي

[1] – مفهوم العدل في الإسلام، د. مجيد خدوري، ص١٥، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، ط١ ١٩٩٨م

وسيف ينصر وكفى بربك هاديا ونصيرا"[1]. ومعنى هذا أن الحق لابد له من كتاب يهدي، وسيف يحمي.

وقد أمر الله نبيه داوود – عليه السلام – بسياسة شئون الناس بالعدل، وحذر من اتباع الهوى بقوله سبحانه:**{ يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} [ص: ٢٦].**

وكما أمر الله نبيه داوود والأنبياء من قبله بإقامة العدل، فقد أمر سبحانه خاتم أنبيائه ورسله – سيدنا محمدًا ﷺ – بما أمر به الأنبياء جميعًا فقال سبحانه:**{فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ} [الشورى: ١٥].**

ولقد استجاب الرسول – صلى الله عليه وسلم – لهذا التوجيه، فكافح لتحقيق العدل، حتى جعل منه موضوعًا للتنادي والتواصي العالمي بين أهل الأديان جميعًا. وفي ذلك يقول سبحانه:**{قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ٦٤].**

العدل إذًا هو جوهر دعوة الإسلام، التي استوعبها أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – وكافحوا لتحقيقها، حتى لقد عبّر أحدهم عن موقف الإسلام من العدل أمام قادة الفرس – وقد سألوه: ما الذي جاء بكم إلى بلادنا ؟ – بقوله:" اللَّهُ ابْتَعَثَنَا، وَاللَّهُ جَاءَ بِنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سِعَتِهَا، وَمِنْ جَوْرِ الأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الإِسْلامِ"[2]

أبعاد العدل الثلاثة: هذا وللعدل الذي تستهدفه دعوة الإسلام أبعاد متعددة، لعل أهمها ثلاثة: العدل الأخلاقي، والعدل السياسي، والعدل الحضاري.

١- مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية عام النشر: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م [1]، ج١٠، ص١٣

١- تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)

صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي، (المتوفى: ٣٦٩هـ)، الناشر: دار التراث – بيروت، الطبعة: الثانية – ١٣٨٧ هـ، ص٣، ص٥٢٠

أولًا: **العدل في بعده الأخلاقي**، ونعني به: تفعيل العدل والالتزام به كقيمة أخلاقية كبرى، يستهدفها المربون، ويعتمدونها لتهذيب النفوس والتسامي بها؛ ليصبح الإنسان في رحابها مستعدًا لإنصاف الناس من نفسه في مجال السلوك، وإنصاف عقله من هواه في ميدان الفكر.

ولقد اعتبر علماء الأخلاق في هذا السياق أن العدل أصل الفضائل كلها، تتفرع عنه، وتنبثق منه، حتى لقد قال الإمام الطوسي:" العدل ليس جزءًا من الفضيلة، بل هو الفضيلة كلها، والظلم ليس جزءًا من الرذيلة، بل هو الرذيلة بتمامها".[1]

كما عدَّ الإمام الغزالي (العدل) أحد الأركان الأربعة التي تقوم عليها الأخلاق جميعها، بل ربما كان العدل أهم هذه الأركان باعتباره سمة لازمة للتوازن والاعتدال في بقية الأركان، وفي ذلك يقول رحمه الله:" أمهات الْأَخْلَاقِ وَأُصُولُهَا أَرْبَعَةٌ: الْحِكْمَةُ وَالشَّجَاعَةُ وَالْعِفَّةُ وَالْعَدْلُ. وَنَعْنِي بِالْحِكْمَةِ: حَالَةً لِلنَّفْسِ بِهَا يُدْرَكُ الصَّوَابُ من الخطأ في جميع الأفعال الِاخْتِيَارِيَّةِ. وَنَعْنِي بِالْعَدْلِ: حَالَةً لِلنَّفْسِ وَقُوَّةً بِهَا تسوس الغضب والشهوة، وتحملهما على مقتضى الحكمة، وتضبطهما فِي الِاسْتِرْسَالِ وَالِانْقِبَاضِ عَلَى حَسَبِ مُقْتَضَاهَا. وَنَعْنِي بِالشَّجَاعَةِ: كَوْنَ قُوَّةِ الْغَضَبِ مُنْقَادَةً لِلْعَقْلِ فِي إِقْدَامِهَا وَإِحْجَامِهَا. وَنَعْنِي بِالْعِفَّةِ: تَأَدُّبَ قُوَّةِ الشَّهْوَةِ بِتَأْدِيبِ الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ: فَمِنِ اعْتِدَالِ هَذِهِ الْأُصُولِ الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلها"[2].

إن العدل الأخلاقي في المنظور الإسلامي قيمة عليا ضابطة لتصرفات الإنسان وسلوكياته، بدءًا من لفظته.**{وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا} [الأنعام: ١٥٢]**، وانتهاء بحركته.**{وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ} [لقمان: ١٩]**، ومرورًا بما بينهما من صور العدل التي أمر الإسلام بها في مجالات النشاط المختلفة: في مجال الأسرة، القضاء، والشهادة، والفصل بين الخصوم... وغيرها من المظاهر التي لا تستقيم حياة الإنسان في الدنيا والآخرة إلا بالعدل فيها.

ثانيًا: **العدل في بعده السياسي**، إذا كان العدل في البعد الأخلاقي يستهدفه المربي من نفس الفرد طوعًا، فإنه في البعد السياسي يستهدفه الحاكم المقسط من مجموع الأمة والأفراد إلزامًا، ولذلك كان العدل السياسي أوسع مجالات العدل، بل هو أخطره، ذلك أن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

---

[1] – مفهوم العدل في الإسلام، د. مجيد خدوري، ص١٤٩، مرجع سابق

[2] – إحياء علوم الدين, للغزالي, ص٥٤, ج٣، مرجع سابق

ولعل المتأمل في مجمل ما ورد بشأن العدل في مجاله السياسي لا يخطئه استخلاص ثلاث دعائم رئيسه تمثل ميزان العدالة وضماناتها في هذا المجال، وتلك الدعائم هي: الحاكم المقسط، والقاضي المستقل، والشورى الحرة.

فالحاكم المقسط في الإسلام هو أحد الثلاثة الذين لا تُرد دعوتهم، لفضله وشرفه، كما قال – صلى الله عليه وسلم –:" ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ، وَالإِمَامُ العَادِلُ، وَدَعْوَةُ المَظْلُومِ يَرْفَعُهَا اللَّهُ فَوْقَ الغَمَامِ وَيَفْتَحُ لَهَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ"[1]

كما أن تقدير الحاكم المقسط وتبجليه هو نوع من إجلال الله وإكباره في المنظور الإسلامي. يقول – صلى الله عليه وسلم – :" إن من إجلالِ الله إكرامَ ذي الشيبَةِ المسلمِ، وحاملِ القُرآنِ غيرِ الغالي فيه والجافي عنه، وإكرَامَ ذي السُّلطَانِ المُقْسِطِ"[2]

وقد مرّ أن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه داوود – عليه السلام – بسياسة الناس بالعدل، وحذره من الظلم واتباع الهوى، معتبرًا ذلك شروطًا للاستخلاف الصحيح. قال تعالى:**{يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ } [ص: ٢٦].**

وما أحسن ما أشار إليه النبي – صلى الله عليه وسلم – من امتداح الحاكم المقسط ولو كان غير مسلم، إذ الناس لهم من الحاكم قسطه، وله من نفسه إسلامه أو كفره، ولهذا أمر النبي – صلى الله عليه وسلم – أصحابه بالهجرة إلى جوار ملك الحبشة معللًا ذلك بقوله:" فَإِنَّ بِهَا مَلِكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ"[3].

وثاني دعائم العدل السياسي هو القاضي المستقل، الذي لا يحابي في الحق، ولا يجامل فيه، بل يحكم بالعدل ولو على نفسه، تحقيقًا لأمره تعالى:**{وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ} [النساء: ٥٨].**

وقد اعتبر النبي – صلى الله عليه وسلم – القضاة ثلاثة، لا ينجو منهم إلا من يحكم بالعدل. يقول – صلى الله عليه وسلم – "القُضاةُ ثلاثة: واحِدٌ في الجنة، واثنان في النار،

---

[1]– سنن الترمذي، أبواب: الدعوات، بَابٌ: فِي العَفْوِ وَالعَافِيَةِ، رقم: ٣٥٩٨

[2]– سنن أبي داوود، كتاب: الأدب، باب: في تنزيلِ الناسِ مَنَازلَهم، رقم: ٤٨٤٣

[3]– السيرة النبوية لابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: ٢١٣هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الثانية، ١٣٧٥هـ – ١٩٥٥ م، ج١، ص٣٢١

فأما الذي في الجنة فرجلٌ عَرفَ الحقَّ فقَضَى به، ورَجُلٌ عرف الحقَّ فجار في الحكم، فهو في النار، ورَجُلٌ قضى للنَّاس على جهلٍ، فهو في النار"[1]

وإنما خوّف الرسول – صلى الله عليه وسلم – من شأن القضاء هنا، حتى اعتبر اثنين من كل ثلاثة من القضاة في النار؛ لكون الجهة القضائية تمثل ملاذ العدالة الأخير، والضمانة الباقية لرفع الظلم عن الشعوب إذا استبد بها الحكام، أو جارت عليهم سلطة القوة والتنفيذ.

وقد عرّض القرآن الكريم بأولئك القضاة الذين حكموا على سيدنا يوسف بالسجن ظلمًا وعدوانًا مع وجود الآيات الواضحات على براءته ونزاهته، وفي ذلك يقول سبحانه: **{ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ } [يوسف: ٣٥].**

وكم نصح عمر – رضي الله عنه – قاضيه بالعدل، والمساواة بين الناس في الحكومة، ضمانًا لاستقرار المجتمع، وقطعًا للطريق على أولئك الذين تسول لهم أنفسهم استغلال فساد القاضي وظلمه لتحقيق مصالحهم.

فمما جاء من وصية سيدنا عمر – رضي الله عنه – لقاضيه:" آسِ بَيْنَ النَّاسِ فِي وَجْهِكَ وَعَدْلِكَ وَمَجْلِسِكَ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِي حَيْفِكَ، وَلَا يَيْأَسَ ضَعِيفٌ مِنْ عَدْلِكَ".[2]

أمّا ثالث دعائم العدل السياسي فتكمن في الشورى الحرة، الشورى التي تمثل رأي الأمة، وتعبر عن إرادتها، وتقطع الطريق على ذلك النمط الاستبدادي والشمولي في الحكم. ولذلك أمر الله نبيه – صلى الله عليه وسلم – بمشورة أصحابه، والنزول على إجماعهم، ما لم يكن نصٌّ من وحي، فقال سبحانه: **{وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} [آل عمران: ١٥٩].** كما اعتبر الإسلام الشورى خاصية للأمة الإسلامية الفاضلة بقوله: **{وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} [الشورى: ٣٨].** فبالحاكم المقسط، والقاضي العادل المستقل، والشورى الحرة يتحقق العدل السياسي، ويسعد الناس بالأمن في ظلاله.

ثالثًا: **العدل في بعده الحضاري**، وهو ما يطلب لحماية كرامة الإنسان، وحراسة حقوقه المختلفة، حتى ينهض بعبء الاستخلاف والعمران المنوطين به كإنسان، ولذلك اعتبر العلماء الأمن والعدل مستوطن الحضارات، ومحل إقامتها، وفي ذلك يقررون أن الحضارة إنما تقوم حيث يقوم الأمن والعدل؛ وذلك أن العدل هو المناخ الصحي الذي تتفجر في ظله

---

[1] – سنن أبي داوود، كتاب: الأقضية، باب: باب القاضي يُخطئ، رقم: ٣٥٧٣

[2] – الأحكام السلطانية, أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، الناشر: دار الحديث – القاهرة، ص١٢٢

ملكات الابداع، والتحديث، والتطوير، كما تعبّر فيه الحرية الإنسانية عن نفسها، وهي كلها أمور لازمة لنمو الحضارات وازدهارها.

ولقد توعد الله من قبلُ بالويل والهلاك كل من يهين الإنسان بهمز أو لمز، فقال سبحانه: **{وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ } [الهمزة: ١]**؛ إذ ما من حضارة تظلم الإنسان، أو تحتقر شأنه إلا وقد أخذت نفسها بعوامل الخراب، ولذلك قرر ابن خلدون – عالم الاجتماع– الكبير أن الظلم مؤذن بخراب العمران"[١]

وقد قرر القرآن الكريم أن لكل أمة أجلًا حضاريًا، يمتد ذلك الأجل أو ينحصر، يطول أو يقصر بقدر ما يصان فيه من حقوق الإنسان، وتحفظ كرامته، إذ ليس شيء يطيل من عمر الأمم مثل العدل، ولا شيء يعجل بزوالها كالظلم. قال تعالى: **{وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}[الأعراف: ٣٤]**.

روى الْمُسْتَوْرِدُ الْقُرَشِيُّ، عِنْدَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ» فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو: أَبْصِرْ مَا تَقُولُ، قَالَ: أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ، إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالًا أَرْبَعًا: إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ، وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ، وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ، وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ: وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ.[٢]

إن عَمْرًا – رضي الله عنه – أدرك أن شروط البقاء الحضاري إنما تتمثل في الحفاظ على الإنسان وصيانة كرامته، ومن مظاهر ذلك إسعافه بالتكافل إذا احتاج، وحمايته من عسف الملوك إذا ظُلم؛ ولذلك قيل:" إن الله يقيم الدولة العادلة ولو كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة ولو كانت مؤمنة".[٣]

ومفهوم تلك القاعدة الحضارية لم يخرج عن مضمون قوله تعالى:**{ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ} [هود: ١١٧]**، على أن المقصود بالظلم في الآية هو الكفر،

---

[١] – انظر: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (المتوفى: ٨٠٨هـ)، المحقق: خليل شحادة، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م، ص٣٥٣

[٢] – صحيح مسلم، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، بَابُ: تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ، رقم: ٣٥

[٣] – مجموع الفتاوى لابن تيمية، ص٦٣، ج٢٨، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، (بتصرف يسير جدًا)

وهذا يعني أن الكفر وحده لا يعجّل بانهيار الحضارات ما دام أهلها يقيمون العدل، بينما الذي يأتي على تلك الحضارات من القواعد هو الظلم، ولو كان أهلها مؤمنين!

ولئن كانت مسؤولية العدل في مجاله الأخلاقي تقع على عاتق أهل التربية والسلوك، وفي مجاله السياسي على عاتق الحكام المقسطين، وأهل الشورى الأحرار، والقضاة المستقلين، فإن مسؤولية العدل في المجال الحضاري الذي يستهدف حماية الإنسان وحراسة حقوقه بالدرجة الأولى إنما هي مسؤولية مشتركة على مجموع الأسرة الإنسانية، بعلمائها، وحكّامها، ومؤسساتها الحضارية، وأعرافها الدولية وأحزابها السياسية، وهيئاتها ولجانها الحقوقية، إذا كنا نريد حضارة إنسانية كبديل عن تلك الحضارة المادية الطاغية.

محاور بين يدي الدعاة لتحقيق مقصد العدل

١- العمل على تزكية العقل بالوعي والمعرفة؛ لكون العقل الواعي أحد المصادر والمعايير المهمة لمعرفة وجوه العدل، وتحديد عناصره من جهة، ولكون الجهل والخرافة من أهم ما يدعّم بهما الظلم أركانه، ويقيم بنيانه من جهة ثانية.

٢- الترفق بمن نشأ بعيدًا عن ديار الإسلام، وعدم العجلة بالحكم على مَنْ لم تبلغه دعوة الإسلام بالكفر؛ إذ ليس من العدل محاسبة الناس على شيء لم يعرفوه. {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: ١٥]. بل لعل من وجوه العدالة في هذا السياق عدم تكليف حديثي العهد بالإسلام بما فوق طاقتهم، وضرورة الاكتفاء بأهم فرائض الدين في مراحل إسلامهم الأولى، اقتداء بهدي النبي – صلى الله عليه وسلم. فقد رُوي في الحديث" عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ، أَنَّ وَفْدَ ثَقِيفٍ لَمَّا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْزَلَهُمُ الْمَسْجِدَ لِيَكُونَ أَرَقَّ لِقُلُوبِهِمْ، فَاشْتَرَطُوا عَلَيْهِ أَنْ لَا يُحْشَرُوا، وَلَا يُعْشَرُوا، وَلَا يُجَبُّوْا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَكُمْ أَنْ لَا تُحْشَرُوا، وَلَا تُعْشَرُوا، وَلَا خَيْرَ فِي دِينٍ لَيْسَ فِيهِ رُكُوعٌ»"[١].

٣- التأكيد على بيان موقف الإسلام من تحريم الظلم بكل أنواعه، وحملته على الظالمين، والتخويف من الركون إليهم.

٤- بيان موقف الإسلام من الطغيان المادي، ومحاربته للنظام الطبقي الجائر، وطرح الرؤية الإسلامية العادلة في بناء مجتمعات المساواة والتكافل.

---

[١] – سنن أبي داود، كتاب: الخراج، باب: ما جاء في خبر الطائف، رقم: ٣٠٢٦. ومسند أحمد، مسند: الشاميين، حديث عثمان ابن أبي العاص، رقم: ١٧٩١٣، وقال عنه الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف.

٥- تعليم الجماهير أمانة الاختيار والانتخاب الحر لأهل الفضل والديانة، واعتبار ذلك شهادة لا ينبغي كتمانها، بل يجب أداؤها في غير مساومة ولا خيانة؛ وذلك لما لهذا الاختيار الأمين من انتزاع مقاليد الأمور من يد من لا يحسنها ووضعها في يد الأمناء والصالحين. وفي الحديث الشريف عن ابن عباس – رضي الله عنهما –: «مَنِ اسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنْ عِصَابَةٍ وَفِي تِلْكَ الْعِصَابَةِ مَنْ هُوَ أَرْضَى لِلَّهِ مِنْهُ فَقَدْ خَانَ اللَّهَ وخانَ رَسُولَهُ وخانَ الْمُؤْمِنِينَ»[١].

٦- إعطاء الأولوية في الخطاب للانتصاف للفئات المستضعفة وأصحاب الحاجات، ولذلك يجب التركيز على بيان ما قرره الإسلام من حقوق للأطفال، وقضايا النساء وحقوقهن، وذوي الاحتياجات والهمم... إلخ.

٧- مساندة المنظمات الحقوقية فيما تقوم به من أدوار وما تستهدفه من أعمال صالحة تسهم في رفع الظلم وتحقيق العدل، خاصة وأن التعاون على البر والتقوى هو جزء من روح الإسلام وجوهره.

٨- التأكيد على موقع الشورى من الإسلام نصًا وتطبيقًا، واعتبار الافتئات على حق الأمة في الشورى جريمة كبرى وخيانة عظمى؛ إذ الشورى هي العاصم من التسلط والاستبداد, والضمان للاستقرار والعدل.

٩- اهتمام الخطاب الدعوي بملف العدالة الاجتماعية، وبيان عناية الإسلام بضرورة تلبية احتياجات الناس: من المسكن الملائم، والدواء النافع، والمركب الصالح, والتعليم الجيد، والعمل المناسب.. على أن يكون ذلك مشفوعًا ببيان ما يجب على الأفراد من مسئوليات الجد والاجتهاد ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا.

******

[١] – المستدرك، كتاب: الأحكام، رقم: ٧٠٢٣، وقال الحاكم: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

المطلب الثالث: مقصد الحرية

ما الحرية، ولماذا ؟ ترد الحرية في اللغة للدلالة على معنين: أولهما: الخلاص، وذلك من قولهم: حرَّ العبد حرارًا, أي: خلص من الرق. وحرره: أعتقه. وتحررت الأرض: تخلصت من سيطرة الغير عليها. والثاني: الشرف وطيب الأصل والعنصر. حيث إن الحُرَّ من كل شيء هو: أعتقه وأحسنه وأطيبه. والأحرار من الناس هم الأخيار والأفاضل. والمرأة الحرة هي المرأة الكريمة. ويقال هو حُرٌّ, أي طيب الأصل كريم.[1]

وبتأمل المعنيين اللذين دلت عليهما (الحرية) لغةً, يبدو أن الثاني منهما قد جاء متضمنا المعنى الأول في الجملة؛ ذلك أن الشرف والكرم يستلزم تخلصًا من رذائل الأخلاق، والتجرد مما يُستقبح. كما أن طيب الأصل والعنصر يستلزم الخلاص من شوائب النسب، والتحرز مما يشين الأصل والنشأة.

هذا عن مفهوم الحرية في اللغة، أما عن دلالة الحرية في الاصطلاح الدعوي فنعني بها: الدعوة لإزالة القيود المادية والمعنوية أمام الإرادة الإنسانية للتعبير عن اختيارها الحر، واستنفار رغبة الإنسان في الكرامة؛ لحماية حقوقه الفردية والجماعية.

ومعنى هذه أن الحرية التي تستهدفها الدعوة الإسلامية هي الحرية الشاملة لذلك المخلوق الإنساني المستخلَف, الحرية باعتبارها مناطًا للتكريم الإنساني، يمتاز بها الإنسان عن غيره من المخلوقات المسيرة التي تجردت من الإرادة، ولا تحكمها إلا الضرورة.

الحرية كمنزع إنساني فطري يحتاج إلى إرواء وإشباع، شأنه في ذلك شأن النوازع الفطرية الأخرى، المادية والروحية. الحرية كحق ضروري للفرد، لازم له للتعبير عن اختياره الحر، وامتلاك إرادته، وحمايته من كل ما يمكن أن يسلبه حق تحقيق وجوده (أنا حر إذا أنا موجود). الحرية كضرورة حضارية، لا تقوم للإنسان مدنية، ولا يحصل له تقدم بدونها.

كل هذه المعاني وغيرها يجب استهدافها من قبل الخطاب الدعوي، ذلك أن الحرية تكاد تكون هي المحور الذي تتمركز حوله سائر الحقوق الإنسانية، أو هي الأصل الذي تتفرع عنه تلك الحقوق؛ وإلا فما قيمة تقرير حق الإنسان في التدين وهو لا يملك الحرية في اختيار معتقده؟ وما جدوى الحديث عن حقه في الحركة والانتقال، أو حقه في التعليم، أو الصحة, أو العمل والكسب...؟!

---

[1] – انظر: المصباح المنير, أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ)ص١٢٨,ج١ مادة:حرر, و المعجم الوسيط, مجمع اللغة العربية بالقاهرة, ص١٦٥, ولسان العرب، لابن منظورص١٨٢، ج٤، مادة (حرر)

ما جدوى هذا إذا لم تتوافر للإنسان الحرية الكاملة في اختيار العمل الذي يريد، والمُقام الذي يحب، ونظام التعليم الذي يرتضي، دون جبر أو إكراه؟!

دعوة الإسلام للحرية الأدبية والمعنوية[1]. كما ناضل الإسلام لتحرير الإنسان ماديًا مِن كل مَنْ يتخذ منه سلعة للبيع والشراء، فقد كافح كثيرًا لاستخلاصه روحيًا وأدبيًا من كل ما يسيطر على إرادته، ويسلبه اختياره الحر، وذلك أن الإنسان قد يطلق سراحه من قيود الأسر المادي، والرق الحسي، ومع هذا يظل أسيرًا لقيود أخرى تنال من حريته الداخلية، وذلك من نحو قيد الجهالة الخرافة، أو قيد القهر والاستعباد، أو قيد الهوى والشهوة، وكذلك قيد الظلم والتخويف.... فهي كلها أغلال قد جاء الإسلام لكسرها، وفك إرادة الإنسان وكرامته من أسرها.

إن الحرية الأدبية والمعنوية للإنسان هي الحرية الحقيقية، بل هي التعبير الحقيقي عن الوجود الإنساني، ذلك أن – الله تعالى – قد خلق نفوسنا حرة، فحريتنا – كما يقول أحمد لطفي السيد – :" هي نحن، هي ذاتنا ومقوم ذاتنا، هي معنى أن الإنسان إنسان، وما حريتنا إلا وجودنا، وما وجودنا إلا الحرية. ليس في استطاعة أحد أن يسلب أحدًا حريته قبل أن يسلبه روحه، وليس لامرئ أن ينزل عن حريته لغيره، ما دام لا حق له أن ينزل عن حياته التي وهبها الله له، والتي لا يأخذها إلا هو".[2]

ولئن سبق الإسلام بإجراءاته لتحرير الإنسان ماديًا، فلقد كانت له توجيهاته كذلك لتحريره معنويًا وأدبيًا, ومن ذلك ما يلي:

١– اعتبار السعي لتحرير الإنسان من أهم وظائف النبي – صلى الله عليه وسلم – , وأبرز خصائص رسالته ودعوته، وفي ذلك يقول الله تعالى وصفًا لمهمة الرسول: **{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ**

---

١ – التركيز على الحرية المعنوية لا يعني إغفال الإسلام للحرية المادية، وإلا فقد جاء الإسلام يوم جاء وقد كان الإنسان ممتهن الكرامة، مسلوب الإرادة، حتى لقد كان في كثير من الأحيان بمثابة السلعة التي تباع وتشتري، إذ كان استرقاق البشر وبيعهم في الأسواق يمثل عنصرًا رئيسًا من بنية الاقتصاد العالمي يومئذٍ، وهو ما كان من نتيجته انقسام البشر إلى فريقين: سادة وعبيد. لما جاء الإسلام – والحال هكذا – عمد إلى تحرير الإنسان من تلك العبودية، وفك رقبته من ذلك الأسر لأخيه الإنسان، وقد سلك لذلك التحرير المادي للإنسان سبلًا متعددة، تناولتها المصادر الإسلامية بالتفصيل، لاسيما كتب الفقه الإسلامي فلتطلب هناك.

٢ – المنتخبات، أحمد لطفي السيد، الجزء الأول، ص٢٣١، نقلًا عن: فكرة التنوير بين لطفي السيد وسلامة موسى, د. عصمت نصار، ص ٤١٢ الهيئة العامة لقصور الثقافة، الطبعة الأولى ٢٠١٤

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف: ١٥٧].

والأغلال التي كانت – وما زالت – تنال من كرامة الإنسان وحريته، والتي عمل – صلى الله عليه وسلم – على كسرها، واستخلاص الإنسان من حصارها كثيرة ومتعددة، منها: قيد الكفر والشرك، وقيد التقليد بلا برهان والاتباع بغير حجة، وقيد الهوى وغلبة الشهوة، كما أن منها قيد العنصرية والحسبية... إلى غير ذلك من تلك القيود التي تنال من كرامة الإنسان، وتمنعه اختياره الحر؛ ولذا وجب حماية الإنسان منها، وفك إسارها عنه.

٢- إسقاط المسئولية عن المكره؛ لأن الحرية والاختيار شرط لتحمل التبعة، ولا اختيار مع الإكراه، ولذلك اعتبر الإسلام كل فعل أو تصرف وقع نتيجة الإكراه لا تترب عليه آثاره، فلا قيمة لعقد أُبرم، أو طلاق وقع، أو وصيّة حصلت، إذا تحقق أن شيئًا من ذلك صدر في حالة الإكراه. يقول – صلى الله عليه وسلم –: "إِنَّ اللَّهَ قد تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ"[١]

بل لقد اعتبر القرآن الكريم النطق بالكفر نتيجة الإكراه لا إثم فيه، ولا تترتب عليه آثاره، وفي ذلك يقول سبحانه: **{إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [النحل: ١٠٦]**. ولعل من حكمة الإسلام في هذا الصدد أنه جعل الدليل على صحته – كدين – دليلًا عقليًا، ولم يجعله دليلًا حسيًا كالمعجزة ونحوها، ذلك أن المعجزة الحسية ربما تدهش من رآها، فيضعف على إثر ذلك اختياره، وقد يكون ذلك الضعف قادحًا في الاختيار الكامل الحر، ولذلك عمد الإسلام إلى البرهان العقلي لأنه المعبر عن الاختيار الحر، وإن بقيت المعجزة الحسية وسيلة استئناس، لا دليل استشهاد!

٣- تقرير حق الإنسان في الانتصاف لنفسه، وذلك حين يتعرض للظلم، أو يكره على غير ما يريد. والله تعالى يقول:**{وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ} [الشورى: ٤١]**. ويقول:**{وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا} [الشورى: ٤٠]**. بل إن فريضة الجهاد ما شرعت في الأصل إلا لحماية الحرية في أشرف مجالاتها, وهي حرية التدين والاعتقاد. فحين أذن الله للمسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم، قد ذكر ما يبرر ذلك الدفاع بقوله: **{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ**

[١] – سنن ابن ماجه، أبواب الطلاق، باب: طَلَاقِ الْمُكْرَهِ وَالنَّاسِي، رقم: ٢٠٤٣

بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}[الحج: ٣٩، ٤٠].

ولولا حماية الحرية الدينية ما قال المسلمون ما قالو لقائد الفرس:" اللَّهُ ابْتَعَثَنَا، وَاللَّهُ جَاءَ بِنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سِعَتِهَا، وَمِنْ جَوْرِ الأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الإِسْلامِ"[١].

٤- إيجاب إعانة المستضعفين والتحريض على استخلاصهم من العدوان الواقع عليهم، وفي ذلك يقول سبحانه:**{وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا} [النساء: ٧٥]**

بل لأجل مساندة المستضعفين، والانتصار لهم ممن أهدر كرامتهم، وأسقط اختيارهم بقوله:{ **أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [النازعات: ٢٤]**، وقوله: **{مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} [غافر: ٢٩]**، لأجل هؤلاء أرسل الله نبيين كريمين: موسى وهارون قائلًا لهما:**{اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى} [طه: ٤٣]**. وآمرًا إيّاهما:**{فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ } [الشعراء: ١٦، ١٧]**.

وكم دعا الإسلام كل عقلاء العالم، وأهل الأديان السماوية جميعًا، أن يتحدوا فيما بينهم لحماية الإنسان من الاستغلال بكل أنواعه، سواء كان ذلك الاستغلال سياسيًا، أو اقتصاديًا. دعا الإسلام لهذا التعاون بقوله: { **قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ٦٤]**.

فحماية الإنسان من آثار التهجير والتشريد من الأوطان بسبب الأغراض السياسية والاستعمارية، وحمايته من آثار الفقر والجهالة و المرض، وحمايته من الاستعباد والاستبداد، هي كلها مجالات للتعاون العام، والتوافق الدولي سبق الإسلام بالدعوة إليها، وسيظل يهتف بها إلى أن يقوم الناس لرب العالمين.

---

[١] – تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري, محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ), (صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي، المتوفى: ٣٦٩هـ), الناشر: دار التراث – بيروت, الطبعة: الثانية – ١٣٨٧ هـ, ج١١, ص٥٢٠

محاور بين يدي الدعاة لتحقيق مقصد الحرية

١- التركيز على الإيمان بمبدأ المسئولية الفردية، وضرورة الاعتداد بالشخصية، والتحذير من انسحاق الذات، فإن ذلك يعمق من قيمة الحرية ويعزّز من معناها.

٢- تشجيع كل دعوة محلية، أو عالمية من شأنها العمل على الحفاظ على حقوق الإنسان وحمايته، خاصة ما يصدر من مواثيق دولية، ومؤتمرات عالمية بهذا الشأن.

٣- الارتكان في تعزيز معاني الحرية على الوعي والمعرفة؛ إذ بدونهما لا حديث عن الحرية، فهما دعامتها الأولى، ومبعث نورها. ولا يُميت الحرية إلا الجهل, ولا يعجّل بوفاتها إلا الإيمان بالخرافة.

٤- إعطاء أولوية لترسيخ معاني الحرية الوطنية، وما تستلزمه تلك الحرية من ضرورة الحفاظ على الأوطان، والنهوض لحمايتها، ودفع العدوان عنها.

٥- شرح أوجه التمايز، وبيان الخيوط الدقيقة بين ما هو تعبير عن الحرية الحقيقية، وبين ما هو تعبير عن الفوضى؛ إذ ليست الحرية التحرر من كل شيء، حتى من رقابة الضمير، بل الحرية أن يفعل الإنسان ما ينبغي لا ما يشتهي، أو هي تلبية الرغبة الإنسانية على مقتضى الحكمة العقلية، أو هي القدرة على الموازنة بين حق النفس وحق الغير.

٦- تقديم الشرح الوافي لأنواع الحريات والحقوق التي قررها الإسلام للإنسان، سواء كانت تلك الحريات شخصية، أو مدنية، أو غيرها؛ وذلك ليعرف الإنسان ما له وما عليه من ناحية، ويمتاز الإسلام بما سبق إليه في هذا الجانب من ناحية أخرى.

٧- التصدي لأشكال الإرهاب المعنوي التي يتعرض لها الإنسان، وتنال من كرامته، وذلك من نحو الاستهزاء به، واحتقار شأنه ومكانته، وكذلك غمزه ولمزه، وظن السوء به.... إلى غير ذلك مما تولت سورة الحجرات وغيرها بيانه وتوضيحه.

٨- التربية على ثقافة النقد الإيجابي، والسؤال عن الدليل والبرهان، وعدم التسليم بالدعوى دون بينة؛ إذ إن ذلك مما يعزز احترام الذات والاعتداد بالشخصية.

٩- الانتصاف للمستضعفين، والانحياز لأصحاب الحقوق، سواء أكانوا أفرادًا، أم شعوبا وجماعات, والسعي لكشف المحاولات التي تستهدف فرض الوصاية على الناس، سواء كانت تلك الوصاية فكرية أو سياسية أو غيرها. وقد قال الله لرسوله- صلى الله عليه وسلم-:{**لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ**} **[الغاشية٢٢]**.{**وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ**} **[ق: ٤٥]**,

{ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} [آل عمران: ٧٩].

١٠- بيان ما يثمره الإيمان بالله وتوحيده في النفس الإنسانية من معاني الحرية، والشعور بالكرامة، بحيث يستقبح الإنسان في رحاب الإيمان كل أشكال الخضوع، ويرفض كل مظاهر العبودية لغير الله تعالى. **{إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: ٤٩].**

****

المطلب الرابع: مقصد التربية الجمالية

ما الجمال؟... لا أنتوي بهذا الصدد بسط الكلام في تحديد ماهية الجمال, أو التعريف بأدوات قياسه, أو التعرض لأهم نظرياته بالتحليل؛ إذ إن تلك المسائل قد تناولتها حقول معرفية متعددة, كعلم النفس, وعلم الأخلاق والتصوف, وكذلك علم الفلسفة. بل لقد انفردت دراسة الجمال بعلم مستقل هو (علم الجمال) أو كما يسمونه (الإستطيقا)aesthetica , وهو الذي يشير إلى الخبرة الحسية المبنية على المعرفة المتعلقة بمنطق الإحساس والشعور بالجمال, تمييزًا لها عن المعرفة المتعلقة بمنطق التفكير العقلي.[1]

ليس المقصود إذًا الخوض في تلك المسائل التفصيلية, إنما القصد بالجمال كموضوع لعلم الدعوة هو: استثارة الوجدان الفطري, وتحفيز الشعور الإنساني, لإدراك ما في الماديات والمعنويات من مظاهر الحسن, وأشكال الجمال؛ تمهيدًا لتعزيز الإيمان, وتقويم السلوك البشري وتهذيبه.

فالإحساس بالجمال أمر فطري, والناس يتفاوتون في الشعور به, والتأثر بأشكاله تفاوتًا كبيرًا, بل تفاوتهم فيه كتفاوتهم في قوة السمع والبصر, والغنى والقوة, وكذلك تفاوتهم في سائر قواهم المادية والعقلية, فليس للجمال وحدة قياس واحدة ومعينة, والمهم هو الإفادة من هذا الإحساس الفطري, وسوق الناس من خلاله للقرب من الله, بعد تطهير قلوبهم, وتهذيب أخلاقهم بهذا النور الشريف, وذلك الإحساس اللطيف.

الجمال عنصر رئيس في البناء الكوني: لأهمية الجمال في التعريف بالله من ناحية, وضرورته لإشباع الحاجة الإنسانية من ناحية أخرى شاءت حكمة الله أن يجعل من الجمال عنصرًا رئيسًا في بناء هذا الكون العظيم, أشيائه وأحيائه. فما من شيء يلتفت الإنسان إليه إلا ويلحظ من سمات الجمال فيه ما يُبهره.

فالسماء التي زينها الله بالنجوم الزاهرات, ورصّعها بالكواكب النيرات, حتى غدت كفستان العروس, يقول الله عنها: **{وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ } [الحجر: ١٦]**. والأرض التي فرشها الله بالنبات المختلف الألوان والأشكال, وجمّلها بالأنهار الجارية, والبحار الصافية, هذه الأرض بزرعها النامي, ونهرها الجاري, وعصفورها الشادي, يقول الله فيها: **{ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ } [ق: ٧، ٨]**.

---

[1] – انظر: الوجود والحرية بين الفلسفة والأدب, د. محمد شبل الكومي, ص١٩١, الهيئة المصرية للكتاب ٢٠١٠م الطبعة الأولى

والإنسان في اعتداله, واستقامة أعضائه, والتناسق الدقيق في بنيانه, يقول الله عنه: **{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [التين: ٤]**. وفي الجبال الشوامخ, والأطواد الجوامد, يقول جلّ شأنه: **{وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ}[فاطر: ٢٧، ٢٨]**. بل حتى في السوائم السائرات, والبهائم العجماوات يلفت الله تعالى النظر لما فيها من آثار الجمال في غدوها ورواحها ويقول:**{وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ } [النحل:٦]**.

الجمال إذًا شيء أساس في بنية الكون, وإلا فما ضرورة أن يكون للنبات تلك الألوان المتعددة, والأزهار المختلفة, والروائح المتباينة, وقد كان ثمره وحده كافيًا لإشباع حاجتنا الضرورية؟ ما الضرورة لذلك لولا أن الله – تعالى – أراد أن يشبع منا الأشواق الطائرة بجمال النبات الساطع, بجانب إشباعه لضرورتنا القاهرة بثمره النافع؟!

ما الضرورة أن يكون للعصفور ذلك الصوت الطريب, أو يُمنح الطاووس ذلك المنظر المهيب, أو تُهدى الوردة ذلك المشهد الجميل؟! بل ما الضرورة لخلق هذه الكائنات التي تبدو في نظر البعض زائدة عن الحاجة الضرورية في البناء الكوني؟ ما الضرورة لولا أن الله أراد أن يشبع حاجة الإنسان للجمال والزينة من جهة, وأن يجعل من هذا الكون بما فيه من آي الجمال مرايا عاكسة لجمال الله الأزلي من جهة أخرى.

لقد أحسن أهل التصوف حين اعتبروا أن الجمال الحقيقي, إنما هو الجمال الإلهي, الذي هو من صفات الله الأزلية, التي شاهدها في ذاته أزلًا مشاهدة علميه, ثم أراد أن يشاهدها في أفعاله مشاهدةً عينية, فخلق العالم فكان كمرآة انعكس على صفحتها هذا الجمال الأزلي. كما اعتبروا الكون بهذا الاعتبار كله جميلًا, ليس فيه شيء قبيح, بل كل ما فيه هو جميل بالأصالة, وما بدا فيه للبعض من قبح, فإنما هو قبح بالاعتبار والإضافة, لا قبحًا بالأصالة, إذ الروائح المكروهة للإنسان هي مما يلتذ به الحيوان.

الفنون الجمالية ولدت لخدمة الأديان والأخلاق: مما يعزز ضرورة الإفادة من علم الجمال, واستثمار الفنون الجميلة عمومًا لخدمة الدعوة الإسلامية العلمُ بأن الفن قد ولد منذ البداية لخدمة الدين, وقد كان وثيق الصلة بالعقيدة منذ فجر التاريخ إلى أن طرأت تغيرات اجتماعية واقتصادية بعد عصر النهضة ساهمت في إضعاف سلطان الدين على الحياة عمومًا, وعلى الفنون خصوصًا؛ فالمصريون القدماء – مثلا – كان لعقيدتهم الدينية أثر بارز في توجيه الفنون وحتى أساليب العمران عمومًا.... فتخطيط المعبد الفرعوني قد

اشتمل على فناء فسيح تتوسطه مسلة مدببة القمة لاستقبال أشعة الشمس (معبودهم الإله رع) التي تسري من خلال المسلة إلى الأرض فتهب الحياة للإنسان والحيوان والنبات ... وبسبب عقيدتهم في البعث صنعوا الرءوس البديلة ومائدة القرابين وتوصلوا إلى معرفة فن التحنيط, وتركوا إلى جوار الميت ألقابه ونفائسه وأدواته ليباشر حياته الثانية بعد الموت.[١]

كما" أن فيثاغورس قد صنع الموسيقى لنسمع في الدنيا ألحان الفلك وفضيلة العالم الروحاني, بينما ركز مفسرو علم الموسيقى على صناعة الآلات والإبداع في الألحان التي استخدمها بعد ذلك الناس للهو والتلذذ بالشهوات الدنيوية فقط, فنسوا العالم الروحاني"[٢].

وجاء في كتاب (الإسلام بين الشرق والغرب) عن العلاقة بين الدين والفن كذلك ما نصه: " في جذور الدين والفن هناك وحدة مبدئية. فالدراما ذات أصل ديني، سواء من ناحية الموضوع، أو من ناحية التاريخ. كانت المعابد هي المسارح الأولى بممثليها وملابسها ومشاهديها. وكانت أوائل المسرحيات الدرامية طقوساً ظهرت في معابد مصر القديمة منذ أربعة آلاف سنة.

وقد انبثقت الدراما الإغريقية من أغاني الكورال في تكريم الإله" ديونيسوس" وكانت المسارح تقام بالقرب من معبده، وكان العرض المسرحي يستمر خلال الاحتفلات المتعلقة بعبادة ديونيسوس كجزء من الخدمة الدينية. إن الأصل الشعائري للمسرح وللثقافة بصفة عامة لا شك فيه، وهو يستند إلى أساس من أدلة تاريخية دقيقة".[٣]

هذا ولا أدري إن أصابني التوفيق في هذا السياق لو ذكرت بأن الأصنام والتماثيل – وهي أعمال فنية – التي صنعها المشركون من قبل، إنما كانوا يصنعونها للعبادة والتقرب إلى الله– تعالى– كما حكى القرآن عنهم، وقد أصابهم التحريف في ذلك حتى عبدوا ما يصنعون من دون الله.

---

١ – انظر: وحدة الفن في عصور التاريخ المصري د. زكي محمد حسن, بمجلة كلية الآداب, جامعة فؤاد, عدد٨, مجلة أول مايو ١٩٤٦م, ص١٣

٢ – رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا, تيسير جيوم دوفو, ص١٥, سلسة تيسير التراث, الهيئة المصرية للكتاب ٢٠١٧م, طبعة أولى

٣ – الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجوفيتش، ص١٤٦، مؤسسة العلم الحديث، بيروت، الطبعة الأول ١٤١٤هـ– ١٩٩٤م

الحاصل من كل ما سبق أن التربية الجمالية, واعتماد فنونها المتنوعة من المسموعات والمرئيات, قد باتت أمرًا ضروريًا لخدمة الدعوة الإسلامية, خاصَة إذا قدّرنا قيمة ما يتركه الإحساس بالجمال في النفس من أثرٍ ينتهي بها لإدراك جمال القيم والمعنويات ببصيرتها، إدراكَها جمال الماديات والمحسوسات ببصرها.

إن الإحساس بالجمال يثمر حبًا في الشعور, وفرحة في النفس، ونشاطًا في الإرادة, وخيالاً في الفكر, وتسامحًا في الطبع, ولطفًا في المخالطة, وعفوًا في التواصل... وما هذه الأمور إلا وسائط النفس لإدراك الجمال في المعنويات, بل لولا إدراك الإنسان لجمال المعنويات ما امتاز بشيء عن غيره من الخلائق!

يقول الإمام أبو حامد الغزالي:" الجمال ينقسم إلى جمال الصورة الظاهرة المدركة بعين الرأس، وإلى جمال الصورة الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة، والأول يدركه الصبيان والبهائم، والثاني يختص بدركه أرباب القلوب ولا يشاركهم فيه من لا يعلم إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، وكل جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال، فإن كان مدركاً بالقلب فهو محبوب القلب"[١]

عناية الرسول بالتربية الجمالية: هذا ومن تتبع مقال النبي – صلى الله عليه وسلم – واستقرأ فِعاله يجده كيف عُنى بالتربية الجمالية, وتعاهد بها أصحابه, حتى جعلهم – عن طريقها – يستقبحون أن يبول أحدهم في ماءٍ راكدٍ أو جارٍ, ويأنفون أن يتخلى بعضهم في طريق الناس أو ظلتهم, ويتأثمون أن تمتد أيديهم لسِدْرة أو شجرة في عرض الطريق بإتلاف أو قطع لغير ضرورة.

ولقد نفى – صلى الله عليه وسلم – لهم أن تكون العناية بجمال الثوب أو النعل ضربًا من الخيلاء والكبر, كما حذرهم أن يخرج عليه أحدٌ منهم ثائر الرأس دون ترجيل, أو متسخ الثوب دون تنظيف, أو حاملاً لسيف دون علاقة مستحسنة !

كما أمرهم – صلى الله عليه وسلم – أن يتهادوا فيما بينهم بالطيب, وشرع لهم عند غروب الشمس وشروقها أذكارًا وتراتيل, وكأن تلك الأوراد – من بعض وجوهها – مظهرًا لشكر ربهم على تلك اللوحة الفنية, وهذا المظهر الجمالي الرباني الحاصل في قرص الشمس ساعة غروبها أو إشراقها, ومن شك في هذا فليستحضر كيف أن ملايين الجنيهات

[١] – إحياء علوم الدين, أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ), الناشر: دار المعرفة – بيروت, ج٤, ص٣٠٣

يدفعها بعضُ عشّاق الجمال لرسّام، لم يفعل شيئًا سوى أنه حاكى صورة الشمس عند غروبها على لوحة من الورق!

لقد ربّى النبي – صلى الله عليه وسلم – الصحابة على ذلك وغيره حتى رقّت على إثر ذلك طباعهم, ولطف إحساسهم, وقوي بالله إيمانهم, وسالت أعينهم بالدمع خشيةً كلما قرءوا كتابه, وتلوا آياته. فليت دعاة اليوم يفعلون مثل ما فعل ﷺ بالأمس !

محاور بين يدي الدعاة لتحقيق مقصد التربية الجمالية:

١- الإفادة من نتائج العلوم التطبيقية, وما كشفت عنه من وجوه الإحكام, وأشكال النظام والانسجام بين عناصر الكون وظواهره الطبيعية, وتسخير ذلك كله لخدمة التربية الجمالية, خاصّة وقد اعتبر البعض أن الجمال في أصله ليس شيئًا سوى التناسب الحاصل بين أجزاء الهيئات المركبة, حتى اعتبروا العدد محور البناء الجمالي في المظاهر الطبيعية, وتطلعوا على إثر ذلك إلى تعريف الجمال بعبارات تسودها ألفاظ الكم والكيف, فالجمال لديهم هو انتظام في نسب التشكيل والتجسيم.[١] وكأنهم بذلك يصدقون قول الله تعالى: { **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر: ٤٩]**, وقوله: **{وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا} [الفرقان: ٢]**.

٢- استخدام الوسائل الفنية قدر الإمكان لتحقيق أهداف الدعوة الإسلامية؛ لما لهذه الوسائل من تأثير على النفس لا يُنكر، كالإنشاد الديني، والتواشيح، والغناء العفيف.

فالغناء مثلًا – وهو أحد تلك الفنون – يقول الأستاذ المنفلوطي عن تأثيره:" الغناء بقية خواطر النفس التي عجز عن إبرازها اللسان، فأبرزتها الألحان، فهو أفصح الناطقين لسانا، وأوسعهم بيانا، وأسرعهم نفاذا إلى القلوب وامتزاجا بالنفوس واستيلاء على العقول وأخذا بمجامع الأفئدة، وبيان ذلك أن النطق ثلاث طبقات تختلف درجاتها باختلاف درجات الإبلاغ والتأثير فيها، فأدناها النثر، وأوسطها الشعر، وأعلاها الغناء، فلو أن عاشقا برح به الهجر مثلا فأراد أن يبلغك ما في نفسه من ذلك فإن قال لك: إني مهجور فحسب, فقد أبلغك بعض ما في نفسه وترك في قلبك من الأثر بمقدار ما تحتمله طبقة النثر من التأثير، وإن أنشدك قول الشاعر:

فوا كبدا من حب من لا يحبني ... ومن زفرات ما لهن فناء فقد سلك بك طريق الخيال وصور لك خواطر نفسه بصورة أوضح من الصورة الأولى, وترك في نفسك أثرا أعظم من الأثر الأول، وإن رفع عقيرته, وكان يجيد التوقيع يتغنى بقول القائل:

[١] – انظر: الوجود والحرية, ص١٩٥, (مرجع سابق)

وارحمتا للغريب بالبلد النا ... زح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا ... بالعيش من بعده ولا انتفعا

فقد صور لك قلبه كما هو وألمسك مواقع الآلام والأوجاع فيه, فبلغ بك التأثير منتهاه, وربما بكيت عند سماعه حزنا ورحمة، وما بكيت إذ بكيت إلا لأن الغناء لم يُبق بقية من خواطر هذه النفس القريحة إلا نطق بها لك وأسمعك إياها، وكما أن الأبيات قيود المعاني كذلك الألحان قيود الأبيات، فلا يزال المعنى مشردا ههنا وههنا حتى يحتويه بيت من الشعر فيستقر في مكانه، ثم لا يزال البيت يتجانف عن الآذان ذات اليمين وذات الشمال حتى يقوده الصوت الحسن, فإذا هو مستودع في الصدور"[1].

٣- الدعوة للسياحة والضرب في الأرض, والنزول إلى الرياض والبساتين, وحض الناس على التأمل؛ إذ إن الحركة والسياحة, والتأمل, مضافًا إليهما تجديد النية عند كل عمل هي أهم العناصر والوسائل التي اعتمدها الإسلام لاستثارة الذوق الجمالي وتنميته.

٤- الحذر من تحريم الطيبات على الناس, والحد من التوسع في تحريم الفنون الجمالية دون برهان, خاصّة وقد استنكر الله – تعالى – تحريم الطيبات على الناس بقوله: **{ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ} [الأعراف: ٣٢].**

٥- تكرار الدعوة للحفاظ على البيئة, وصيانة مواردها؛ إذ إن البيئة هي مادة الجمال وموضوعه من ناحية, كما أن العدوان عليها دليل على بلادة الحس وجفوة الطبع, فضلًا عن غياب مفهوم المسئولية من جهة ثانية.

٦- الاهتمام بدراسة الفنون بشكل عام, المسموع منها والمرئي, والسعي لتأهيل كوادر دعوية متخصصة في تلك المجالات من: غناء, ومسرح, وتمثيل, ورسم... وغيرها؛ وذلك لتطويع تلك الفنون الجمالية لخدمة الدعوة الإسلامية, إذ ربما كان مقطع فني واحد أبلغ في التأثير والقدرة على تحقيق المراد من عشرات الدروس والخطب. وقديمًا قالوا: من لم يحركه الربيع وأزهاره, والعود وأوتاره, فهو فاسد المزاج , ليس له علاج[2]. بل أنشد بعضهم:

لا تلمني إذا طربت لشجوٍ ... يبعث الأنس فالكريم طروب
ليس شق الجيوب حقًا علينا ... وإنما الحق أن تشق القلوب

[1] – النظرات, مصطفى لطفي بن محمد لطفي بن محمد حسن لطفي المَنْفَلُوطي (المتوفى: ١٣٤٣هـ), الناشر: دار الآفاق الجديدة, الطبعة: الأولى ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م, ج٢,ص٥١

[2] – انظر إحياء علوم الدين للغزالي، ص٢٧٥، ج٢، (مرجع سابق).

المبحث الرابع:

المقاصد الاجتماعية للدعوة الإسلامية

وفيه أربعة مطالب:

- **المطلب الأول: مقصد وحدة الأمة**
- **المطلب الثاني: مقصد العمران**
- **المطلب الثالث: مقصد الإصلاح**
- **المطلب الرابع: مقصد الإخاء والسلام العالمي**

المطلب الأول: مقصد وحدة الأمة

ما المقصود بالدعوة إلى وحدة الأمة ؟

ما نقصده في هذا الباب هو: تعزيز الشعور بانتماء المسلم لجسد الأمة الإسلامية الكبير, وتجلية ما يترتب على هذا الانتماء من واجبات؛ ذلك أن الإسلام لا يمكن أن يقوم دون أن يتمثل في أمة, تعكس بتصرفاتها جوهر رسالته وطبيعة نظامه من ناحية, وتنهض لحمايته والدفاع عنه من ناحية أخرى.

ومفهوم الأمة مفهوم حضاري, لم يكن للعرب عهدٌ به, جاء به الإسلام كبديل عن الروابط العنصرية والعرقية التي كانت سائدة لديهم, والتي لم يجن العرب من ورائها سوى التشرذم، والانكفاء على الذات، والغياب الحضاري.

ولقد كان جديدًا على الإنسان العربي أن يسمع لدين يُبغض تلك الروابط الضيقة, التي تفرق بين الناس على أساس من ألوانهم وأعراقهم, ويهتف بمؤاخاة عامة يتساوى فيها الجميع في الحقوق والواجبات تحت ظلال مفهوم الأمة الواحدة, ذلك الرباط الذي حضّ عليه القرآن الكريم, ودفع إليه بأكثر من أسلوب. ومن آياته في ذلك: { **إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٩٢]**, { **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ } [الحجرات: ١٠]**, وقوله سبحانه:{ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ...} [آل عمران: ١٠٣]**.

ثم إن الأمة الواجب العمل على استبقائها, والحفاظ عليها, ليست أمة عنصرية, ولا هي أمة تتشكل بغرض السيطرة والهيمنة, وإنما هي أمة دعوة ورسالة, أمة مبادئ وهداية، ولو كانت أمة عنصرية ما استوعبت بلالًا الحبشي وإخوانه, ولا صهيبًا الرومي ورفاقه, ولا سلمان الفارسي وأصحابه.

هي أمة مختارة, وليست شعبًا مختارًا, مختارة لدينها العالمي, ومبادئها الإنسانية, وقيمها الفطرية – ولا علاقة بهذه الأمور بعرق أو جنس – وليست شعبًا مختارًا لا لشيء سوى عرقه وجنسه, حتى إنه ليظن ذلك الشعب أن له ربًا خاصًا ليس ربًا لكل البشر, بل هو للإسرائيليين وحدهم.

هي أمة هداية ودعوة, خيريتها مرهونة بقيامها بواجبها, من الأمر بالمعروف, والنهي عن المنكر, والإيمان بالله تعالى. **{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ...}** [آل عمران: ١١٠].

الركائز الأربع لوحدة الأمة الإسلامية: لاستبقاء الأمة الإسلامية التي يجب تعزيز الانتماء إليها, والقيام بحقها, ركائز أربع: وجدانية، وتشريعية، ولسانية، واجتماعية.

أولًا: **الركيزة الوجدانية**, وهي ذلك الشعور المقدس, الذي تثمره العقيدة الإسلامية, وينبته الإيمان في نفوس الموحدين, حتى يجعلهم كالجسد الواحد, إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

الركيزة الوجدانية هي رابطة الأخوة الإسلامية التي يؤلّف الله بها بين قلوب المسلمين, ويوحّد عن طريقها صفّهم, حتى يجعل من مجموعهم كتلة سياسية تمكّنهم من الدفاع عن أنفسهم, ونصرة دينهم وقضاياهم.

ورابطة الأخوة الإسلامية هذه لا يماثلها في القدرة على الاتحاد وجمع الكلمة أي رباط إنساني آخر, بل إنها لتمتاز عن سائر الروابط الوطنية, والعرقية, و النَّسبية بأمرين أساسيين:

الأول منهما: أن غيرها من باقي الروابط التي تعارف الناس عليها لا يملك الإنسان معها اختيارًا, بينما هي الرابطة الوحيدة التي يختارها الإنسان بإرادته الحرة.

فالإنسان لا خيار له مثلًا في انتقاء والديه, ولا اختيار نسبه, أو وطنه الذي يولد فيه, بخلاف رابطة الدين فإن الإنسان يملك قبولها أو رفضها؛ ولذلك كانت رابطة الدين أشرف الروابط وأقدسها، لأنها التعبير الحقيقي عن إرادة الإنسان الذي لا شيء فيه أو لديه أشرف من إرادته. فكل الروابط تأتي للإنسان من خارجه إلا رابطة الدين فإنها من داخل النفس وصميم اختيارها.

الأمر الثاني: أن سائر الروابط – غير رابطة الدين – تظل ضعيفة الأثر, هزيلة النتيجة في تحقيق الاتحاد والاجتماع ما لم تمتزج كلها في بوتقة واحدة, وتطوّع بعد انصهارها لخدمة الرابطة الدينية بمبادئها الإنسانية. ودليلنا على ذلك ما كان عليه العرب قبل الإسلام, حيث توافرت لهم روابط متعددة: الرابطة الوطنية (حدود جغرافية للأمة العربية معروفة) والرابطة العرقية, والرابطة اللسانية (اللغة الواحدة) ومع ذلك لم يستطع العرب التحالف لتحرير أرض الجزيرة العربية والحفاظ على استقلال أطرافها الشمالية والجنوبية من تبعيتها للفرس والرومان, لكنهم حين أتاهم الإسلام, وألفّ بين قلوبهم برابطة الأخوة, وطوّع تلك الروابط جميعها لخدمة المبادئ العليا, لم يقفوا فقط عند حد مقاومة هاتين القوتين اللتين كانتا تهددان أمن العالم واستقراره, بل تجاوزوا ذلك إلى تأديبهما, وفتح بلادهما. ولولا

الإسلام وأخوّته ما فعلوا من ذلك شيئا. وصدق الله العظيم:**{وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: ٦٣].**

ثانياً: الركيزة التشريعية (القرآنية). ثاني ركائز وحدة الأمة الإسلامية وحدة التشريع, المتمثلة في اتخاذ القرآن الكريم دستورًا حاكمًا, ومنهجًا جامعًا لكل شعوب الأمة الإسلامية. وإذا كان الله تعالى يقول: **{وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا} [طه: ١١٣]**, فإنه جل شأنه يقول: **{وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا} [الرعد: ٣٧].**

وآيات القرآن الكريم في الدعوة للاحتكام إلى كتاب الله هي من الكثرة بمكان, سواء خاطبت تلك الآيات الشعوبَ, أو الحكامَ. فمن الخطاب للجماهير وعموم الأمة: **{فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: ٦٥]**.ومن الخطاب للحكّام وولاة الأمور: **{ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ} [المائدة: ٤٨].**

هذا وللركيزة التشريعية القرآنية خاصية فريدة من وجهين:

الوجه الأول: المتمثل في احتوائها على جملة من الثوابت غير القابلة للتطوير أو التطويع, وذلك لما تمثله تلك الثوابت من ضرورة لحفظ الأمة, واتحاد كلمتها. إذ لولا هذه الثوابت في مجال العقيدة, والعبادة, والأخلاق, وشيء من المعاملات لانهارت الأمة منذ زمن, فقد كانت نازلة واحدة مما أصاب هذه الأمة عبر تاريخها كافية بمحوها من الوجود.

فهذه الثوابت هي الشيء الذي لا يُغلب من أمة الإسلام, ولو غلبت حضاريًا أو عسكريًا؛ ذلك أن الإسلام بثوابته هذه هو دين يصنع الأمة, وليس أمة تبتدع دينًا كما هو الحال في الأمم الأخرى. فوظيفة الثابت من التشريع: حفظ الأمة من الذوبان وانسحاق الهوية, والرابط الجامع والقاسم المشترك الذي لا يختلف عليه اثنان من المسلمين.

أما الوجه الثاني: فهو ما يمتاز به هذا التشريع من مرونة, خاصة في جانب المعاملات والشئون الدنيوية، تلك المرونة التي يظل بها هذا التشريع متجددًا, وقادرًا على استيعاب حاجات العصر, وتجليات الواقع, وبذلك تظل الأمة الإسلامية في غنى عن استيراد تشريعات من هنا أو من هناك، وإن أفادت من التجارب الإنسانية المتعددة في غير ثوابت الدين وقواطعه.

ثالثًا الركيزة اللسانية, وهي ركيزة اللغة العربية, التي هي أهم دعائم الاتحاد بين الشعوب الإسلامية, خاصة واللغة ليست مجرد أداة للتفاهم, وإلا فالحيوانات تتفاهم فيما بينها بأصواتها, وليست كذلك مجرد وعاء للمعاني, حتى تكون بمثابة الأكياس والأقفاص التي

تكون وعاء للمشتريات, وإنما اللغة مع ذلك جزء من هوية الفرد, بها يفكر, وعن طريقها يعبر, ومن خلالها يدعّم مدنيته واجتماعه. اللغة رباط اجتماعي وقومي ضروري, يعرف ذلك كل من له صلة بدراسة الاجتماع الإنساني.

يقول الشيخ رشيد رضا – رحمه الله – :" لا يمكن أن يتم الاتحاد والإخاء بين الناس وصيرورة الشعوب الكثيرة أمة واحدة إلا بوحدة اللغة، وما زال الحكماء الباحثون في مصالح البشر العامة يتمنّون لو يكون لهم لغة واحدة مشتركة، يتعاونون بها على التعارف والتآلف، ومناهج التعليم والآداب، والاشتراك في العلوم والفنون والمعاملات الدنيوية، وهذه الأمنية قد حققها الإسلام بجعل لغة الدين والتشريع والحكم لغة جميع المؤمنين به والخاضعين لشريعته. إذ يكون المؤمنون مسوقين باعتقادهم ووجدانهم إلى معرفة لغة كتاب الله وسنة رسوله لفهمهما والتعبد بهما، والاتحاد بأخوتهم فيهما، وهما مناط سيادتهم، وسعادتهم في الدنيا والآخرة، ولذلك كرّر في القرآن بيان كونه كتابًا عربيًا، وحكمًا عربيًا، وكرر الأمر بتدبره والتفقه فيه، والاتعاظ والتأديب به، وأما غير المؤمنين فيتعلمون لغة الشرع الذى يخضعون لحكمه، والحكومة التي يتبعونها لمصالحهم الدنيوية كما هي عادة البشر في ذلك، وكذلك كان الأمر في الفتوحات الإسلامية العربية كلها".[1]

اللغة العربية إذًا سياج لحماية وحدة الأمة, وحائط مانع من النيل منها, بل هي أهم الأسلحة التي تدافع بها الأمة عن وجودها. والله تعالى يقول: **{وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً } [النساء: ١٠٢].**

تقول الدكتورة يمنى طريف:" اللغة هي أمضى أسلحة الوجود الحضاري, لقد انهارت أسلحة العرب تباعًا, ولم يعد يسجل وجودهم على خريطة العالم إلا لغتهم العربية".[2]

وفي موضع آخر تقول:" ولحظة أن تختفي اللغة العربية, أو تلحق بمصير اللغة اللاتينية مثلًا لتحل محلها اللهجات المحلية, فها هنا, وفقط ها هنا سينهار الوجود العربي والعالم العربي ليحل محله الشرق الأوسط الجديد وقلبه النابض إسرائيل المتقدمة, وحولها كانتونات متناثرة متخلفة, لن تكون أكثر من منتجعات سياحية وأسواق تجارية".[3]

---

[1] – الوحي المحمدي،, ص١٩٠ (مرجع سابق)

[2] – جريدة الأهرام ١٠ أكتوبر ٢٠٠٣م, مقال بعنوان: في قضية تعريب العلوم من زوايا متعددة, د. يمنى طريف الخولي, نقلًا عن: في التعريب والتغريب, د, محمود فوزي المناوي, ص٢٩, الهيئة المصرية للكتاب٢٠١٣م, بدون رقم

[3] – المرجع نفسه, ص٢٥

رابعاً الركيزة الاجتماعية, وهي الشورى؛ لأن الشورى في جوهرها هي عودة للأمة, ورجوع إليها للفصل فيما يتعلق بشأنها العام. وترسيخ مبدأ الشورى يعزز مفهوم الأمة, ويقلص الفرصة أمام مفهوم الفرد, والتسلطية. وكم أمر الله رسوله – صلى الله عليه وسلم – بالعودة إلى الأمة لاستشارتها, وتفعيل إرادتها عن طريق الاختيار الحر. قال تعالى:{**وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**} **[آل عمران: ١٥٩]**.

وقد وصف الله تعالى الخاصية البارزة لأمة الإسلام بقوله: {**وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ**}**[الشورى: ٣٨]**.

كما أعطى النبي – صلى الله عليه وسلم – بُعدًا جديدًا لتعزيز مفهوم الأمة عن طريق الشورى, وذلك حين أشار إلى مبدأ (عصمة الأمة) في قوله: «**إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَجَارَ أُمَّتِي أَنْ تَجْتَمِعَ عَلَى ضَلَالَةٍ**»[١]. فهو بهذا ينفي عصمة الأفراد, ويقرر وجود الحق دائما في جانب الأمة بمجموعها.

محاور بين يدي الدعاة لتحقيق مقصد وحدة الأمة:

١- التنبيه إلى مخاطر المشاريع التفتيتية, ومخططات التقسيم التي تستهدف الأمة الإسلامية بغية النيل من قوتها لتبقى مقطعة الأوصال, تمهيدًا لنهب خيراتها.

٢- حرص الدعاة على التحدث باللغة العربية الفصحى, والحذر من طغيان اللهجات المحلية على ألسنتهم؛ ذلك أن من مهامهم الارتقاء بعموم الناس إلى مستوى الفصحى, لكونها أداة الفهم للإسلام من جهة, وركيزة من ركائز اتحاد الأمة الإسلامية من جهة أخرى. ولولا أهمية اللغة لهذا الترابط الإسلامي ما بذل خصوم الإسلام كل هذا الجهد لمحاربتها, وتشويه علومها.

٣- استنهاض الجماهير, واستنفارهم للقيام بمسئولياتهم تجاه أمتهم وأوطانهم, وتعزيز ثقافة العمل للصالح العام, واعتبار ذلك جزءًا من التدين السليم, والإسلام الصحيح.

٤- محاربة النعرات العرقية, والدعوات العنصرية التي تريد فرض نفسها كبديل عن رابطة العقيدة الإسلامية الجامعة.

---

[١] – السنة لابن أبي عاصم, باب: مَا ذُكِرَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَمْرِهِ بِلُزُومِ الْجَمَاعَةِ، وَإِخْبَارِهِ أَنَّ يَدَ اللَّهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ, رقم:٨٣

٥- توضيح طبيعة العلاقة بين الروابط الوطنية والقومية وغيرها وبين الرابطة الدينية, واعتبارها روابط تكاملية, لا تصادمية, لكل منها وظيفته, وإن بقيت دائرة الرابطة الدينية هي الأوسع والأشمل, والأبعد أثرًا ونتيجة.

٦- التنبيه لمخاطر الاغترار بالماضي, والاستعلاء بما فعل الأجداد, دون أن يكون مسلك الأخلاف مماثلًا لمنهج الأسلاف.

٧- الاهتمام بشئون الأقليات الإسلامية, وجغرافية العالم الإسلامي عمومًا.

٨- إعطاء أولوية للحديث عن قضايا العالم الإسلامي الكبرى, لاسيما القضية المركزية, قضية القدس والأقصى.

٩- تعزيز دور الروابط الإسلامية العالمية، وكذلك دور جامعة الدول العربية، واعتبار تلك المؤسسات والهيئات لبنات مهمة لتحقيق وحدة العالم الإسلامي.

المطلب الثاني: مقصد العمران

ما العمران؟ العمران لفظة قرآنية آثر الإمام ابن خلدون استعمالها للدلالة على المستوى الأعلى من العمران، ذلك أن العمران لديه، له مستويات ومراحل، أدناها البداوة، وأعلاها الحضارة والتي يعتبرها ابن خلدون نهاية العمران"[1].

ومهما يكن من شيء فإن القصد من العمران في هذا الصدد هو: تحريض ذلك الإنسان المستخلف و تعبئته للقيام بدوره في التفاعل مع البيئة المسخرة واستثمارها, معتمدًا في ذلك على ما يلزم من نظم مادية, وقيم أخلاقية روحية. فالنظم المادية كالمباني والمؤسسات, وسائر الأمور التراتيبية، والقيم الروحية كالعدل, والحرية, والأمن, والشورى...إلخ.

العمران إذاً هو في النهاية حصيلة تفاعل الإنسان مع البيئة ومواردها بأدوات تراتيبية ومعرفية خاصة.

دعوة الإسلام للعمران: سلك الإسلام في التحريض على العمران مسارات متعددة, استنفر بها الطاقة البشرية للتفاعل مع البيئة بما ينفع.

فحينًا يذّكر القرآن بأن من أجّل غايات الوجود الإنساني العمل الصالح؛ لكونه وسيلة العمران المباشرة, وفي ذلك يقول سبحانه: **{الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [الملك: ٢]**. والدعوة للتنافس في العمل كما في الآية ليست بين الحسن والسيء, بل بين الحسن والأحسن!

وحينًا يأتي الأمر المباشر بالعمارة في قوله تعالى: **{هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} [هود: ٦١]**.

لقد عقد الإمام الراغب الأصفهاني في كتابه" الذريعة إلى مكارم الشريعة" بابًا مستقلًا عنوانه:(فيما لأجله أوجد الإنسان) جاء فيه:" الإنسان من حيث هو إنسان كلٌّ واحدٍ كالآخر... وإنما تشرّفه بأنه يوجد كاملًا في المعنى الذي أُوجد لأجله، وبيان ذلك أن كل نوع أوجده الله تعالى في هذا العالم، أو هدى بعض الخلق إلى إيجاده وصنعه فإنه أوجد لفعل يختص به، ولولاه لما وجد، وله غرض لأجله خُصَّ بما خُصَّ به.... والفعل المختص بالإنسان ثلاثة: عمارة الأرض المذكورة في قوله تعالى: (وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) **[هود: ٦١]**،

[1] – مقدمة ابن خلدون, ص١٥٤, المحقق: خليل شحاتة, الناشر: دار الفكر، بيروت, الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م

وذلك تحصيل ما به تزجية المعاش لنفسه ولغيره. وعبادته المذكورة في قوله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) **[الذاريات: ٥٥]**، وذلك هو الامتثال للباري تعالى في أوامره ونواهيه. وخلافته المذكورة في قوله تعالى: (وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) **[النور: ٥٥]**، وغيرها من الآيات، وذلك هو الاقتداء بالباري سبحانه على قدر طاقة البشر في السياسة باستعمال مكارم الشريعة، ومكارم الشريعة هي الحكمة، والقيام بالعدالة بين الناس، والحلم، والإحسان، والفضل، والقصد منها أن يبلغ إلى جنة المأوى، وجوار رب العزة تبارك وتعالى"[١].

ثم تابع المؤلف قوله:" وكل ما أوجد لفعلٍ ما فشرفه لتمام وجود ذلك المعنى منه، ودناءته لفقدان ذلك منه،.... فمن لم يصلح لخلافة الله تعالى، ولا لعبادته، ولا لاستعمار أرضه فالبهيمة خير منه، ولذلك قال تعالى في ذم الذين فقدوا هذه الفضيلة: (إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ) **[الفرقان: ٤٤]**.."[٢].

ومما ورد في إطار الحض القرآني على العمران أمره تعالى بالسعي في الأرض, والضرب في مناكبها طلبًا للسعى والرزق الوفير.**{فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ} [الملك: ١٥]**

هذا فضلًا عن حديث القرآن المطول عن الزراعة وشئونها, والصناعة وضرورتها, والتجارة وأبوابها, وهي كلها عوامل لازمة للعمران, لا يتحقق شيء ذو بال منه بدونها.

ثم إن القرآن لا يفتأ يذكّر بما كان للأمم السابقة من مظاهر العمران التي كانت آية في العظمة والابتكار, فذكّر بحضارة عاد, وثمود, والمصريين القدماء, مردفًا ذلك كله ببيان سنن الله الحاكمة للعمران من حيث الازدهار والاندثار, والصعود والأفول.

وليست دعوة الرسول – صلى الله عليه وسلم – للأخذ بأسباب العمران بأقل من دعوة القرآن الكريم, خاصّة وقد كان – صلى الله عليه وسلم – يستنفر الطاقات للعمل والإنتاج, فهو الذي شجع على استصلاح الأراضي البور, وحرّم تعطيلها, وكان يقول في ذلك:« مَنْ

---

[١] – الذريعة إلى مكارم الشريعة، الشيخ: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ)، ص٣٥، دار: اقرأ للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ٢٠٠١م-١٤٢٢هـ، تحقيق: محمود بيجو (بتصرف يسير).

[٢] – المرجع نفسه ص٣٥-٣٦.

كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ، فَلْيَزْرَعْهَا أَوْ لِيَمْنَحْهَا أَخَاهُ، فَإِنْ أَبَى، فَلْيُمْسِكْ أَرْضَهُ»[1] ويقول: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ»[2].

والرسول- ﷺ- هو الذي اعتبر شق الآبار, وبناء ما يلزم من بيوت لخدمة المحتاجين من أجّل القربات, وأفضل الأعمال وفي ذلك يقول – صلى الله عليه وسلم – : «إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ عِلْمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ، وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ، وَمُصْحَفًا وَرَّثَهُ، أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ، أَوْ بَيْتًا لِابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ، أَوْ نَهْرًا أَجْرَاهُ، أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ، يَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ»[3].

بل هو – صلى الله عليه وسلم – الذي أمر بمواصلة العطاء العمراني ولو إلى النفس الأخير من الحياة الإنسانية بقوله:" إِنْ قَامَتْ عَلَى أَحَدِكُمُ الْقِيَامَةُ، وَفِي يَدِهِ فَسِيلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا "[4].

وما أروع ما أشار إليه – صلى الله عليه وسلم – من ضرورة اعتبار البعد النفسي في التحريض على العمران, وذلك أنه كان يتخير لأصحابه من الأسماء ما يذكّرهم بالعمل, ويبعث في نفوسهم الرغبة في العمارة، ومن جانب آخر ربما غير بعضًا من أسمائهم خوفًا مما قد تُوحي به تلك الأسماء من معاني الخمول والكسل.

فقد سمّى – صلى الله عليه وسلم – المضجع بالمنبعث, واعتبر أفضل الأسماء (حارث وهمّام), واستبشر بأسماء أصحابه ذات الصلة بالبيئة والعمران, وذلك كحنظلة, وعُمر, وعمّار, وعمران، وعمير.

كما استقبح – صلى الله عليه وسلم – تلك الأسماء التي تحمل دلالات التخريب والفساد، حتى إنه قال : " أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ، وَهَمَّامٌ، وَأَقْبَحُهَا حَرْبٌ وَمُرَّةُ».[5]

---

[1] – صحيح البخاري, كتاب: المزارعة, باب: مَا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُوَاسِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي الزِّرَاعَةِ وَالثَّمَرَةِ, رقم: ٢٣٤١

[2] – صحيح البخاري, كتاب: المزارعة, باب: فَضْلِ الزَّرْعِ وَالغَرْسِ إِذَا أُكِلَ مِنْهُ, رقم: ٢٣٢٠

[3] – سنن ابن ماجه, [افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم], باب: ثَوَابِ مُعَلِّمِ النَّاسَ الْخَيْرَ, رقم ٢٤٢

[4] – مسند الإمام أحمد, مُسْنَدُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ, رقم: ١٢٩٠٢

[5] – سنن أبي داود، كتاب: الآداب، باب: في تغيير الأسماء، رقم:٤٩٥٠

فانظر كيف بلغت كراهية الإسلام للحرب حتى استبشع الرسول أن يكون اسمها علمًا على ذات بشرية. وما كان ذلك منه – صلى الله عليه وسلم – إلا تنديدًا بالحرب وآثارها السيئة على العمران، وإتيانها على الحرث والنسل بالفساد.

من روائع القرآن في باب العمران: ومما يلفت النظر في دعوة القرآن للعمران وتحريضه عليه – إضافة لما مرّ – أمران:

الأول: المصطلحات العمرانية التي دلّ عليها, والثاني: الآفاق العمرانية التي أرشد إليها.

أولًا: **المصطلحات العمرانية**. لقد بدا أن القرآن أكثر مِنْ إيراد ألفاظ العمران في ميادينه المتعددة, ومن ذلك أنه استعمل في إشارته للعناصر المعمارية ألفاظًا من نحو: سبيل, سدًا, السدين, نفقًا الحجرات, غرف, الغرفات, الكهف, قواعد, عمل, العماد, السقف, الجدار, أبواب, معارج, سلم, بروج, مدخل, طبقًا, قاعًا, سرادقها, ركن, غطاء, الصخر, الغار, بئر, مرصد, مرصادًا.

وفي الحديث عن العمارة الحربية استعمل: رباط, حصونهم, صياصيهم, حاجزًا, بمواقع, الخيام, جند, حرب, نفر, احصروهم, قتال, بطشتم, قوة, الخيل, أنصار, الفتح, الفاتحين, متبرٌ, دكت, حطامًا, أسرا, الوثاق, الأغلال, تفادوهم, فدية, مغانم, تحرير, الصلح.

كما استعمل في الإشارة إلى مواد البناء والصناعة: صلصال, الطين, الحجر, فخار, حديد, القطر, قطران, جلود, فضة, الذهب, لوح, زجاجة, سندس, إستبرق, اللؤلؤ, الياقوت, المرجان, نحاس, دسر, النار, التراب, رماد, الدهن, الدهان, الخيط, أصوافها, أشعارها, كنز.

وكذلك أورد ألفاظًا متعددة في باب القراءة والكتابة, وأخرى في التاريخ والحساب, وثالثة في الآثار والبنيان, ورابعة في المصنوعات والمنتجات المتعددة, وكذلك في الزينة, وأدوات اللباس والتجمل وغيرها من الميادين.[1] ومعنى ذلك في الجملة أن العمران عنصر رئيس من جوهر الإسلام, وحقيقة دعوته.

ثانياً: **الآفاق العمرانية**. وهي تلك الإشارات القرآنية إلى نوع من التقدم والتطور في بعض الميادين العمرانية, لم يصل الإنسان إلى مثل ذلك التطور بعد, وهو ما يعد نوعاً من التحفيز وفتح الآفاق أمام السعي العمراني في الميادين المختلفة.

[1] – راجع: معجم ألفاظ القرآن في علوم الحضارة, د. عثمان إسماعيل, ص٣٥ وما بعدها, الطبعة الأولى ١٩٩٤, بدون اسم الناشر

ففي مجال البناء وأدواته يشير القرآن إلى إمكانية استخدام الفضة كعنصر رئيس في البناء بقوله: **{لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ} [الزخرف: ٣٣]**.

وفي هندسة السدود وإحكام بنائها يشير القرآن كيف أنها بلغت في العبقرية الحدَ الذي امتنع معه أن ينقبها عدوٌ فضلا عن أن يهدمها، ومن ثَمّ يجاوزها إلى من تحصن بها. قال تعالى: **{ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا } [الكهف: ٩٧]**.

وفي تقدم وسائل المواصلات والاتصال يقول سبحانه – بعد ذكره الوسائل التقليدية –: {وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} **[النحل: ٨]**, وربما أشار إلى شيء من ذلك بقوله: **{وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ} [الزخرف: ٣٣]**. بل لقد لفت النظر إلى ما يمكن لسلطان العلم أن يصل إليه من عبقرية في وسائل الاتصال بقوله: **{قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ} [النمل: ٤٠]**، وذلك حكاية عن نقل عرش ملكة سبأ من اليمن إلى بلاد الشام.

وفي العمارة الزراعية تأتي إشارة القرآن للحَبّة التي تنبت سبع سنابل, في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء.

محاور بين يدي الدعاة لتحقيق مقصد العمران:

١- احترام قانون الأخذ بالأسباب وتحريم التواكل والتباطل.

٢- تعزيز ثقافة التخطيط والتدبير والادخار, والتحذير من مخاطر السرف والتبذير.

٣- الدعوة المستمرة للحفاظ على البيئة, وتنمية الثقافة البيئية عمومًا, بما تستلزمه من الحفاظ على الأبنية والمؤسسات.

٤-الحض على القيام بواجب السعي وفريضة العمل بما يلزمه من أخلاقيات الإتقان والتجويد.

٥- الاهتمام بفقه السنن الحضارية, والإرشاد إلى القواعد الحاكمة للعمران قوة وضعفًا, بقاءً وانهيارًا.

٦- بيان أثر المنظومة الأخلاقية والقيمية في البناء الحضاري؛ ذلك لأن القيم في المجال العمراني هي مظهر سلطة الإنسان على الطبيعة, وتحكّمه فيها, وإلا كان الإنسان أسيرًا للطبيعة وخاضعًا لحتمياتها, وهذا منافٍ لشرف الإنسان وعلو مرتبته في المنظور الإسلامي.

٧- إعطاء أولوية للدراسات التاريخية والقصص القرآني, من منظور حضاري عمراني, وليس من منظور إتحافيٍ ترفي.

٨- العمل على معالجة الهزيمة النفسية التي أصيب بها البعض أمام الانبهار العمراني الغربي, واعتبار الحضارة الغربية خيارًا حضاريًا, وليست نموذجًا حضاريًا, بل النموذج الحضاري هو ما أشار إليه الإسلام من ذلك النمط العمراني الذي يجمع بين حاجة الروح والبدن, وحاجة الدنيا والآخرة .

٩- دفع المدعويين إلى القيام بواجبهم ومسئولياتهم لتحقيق العمران قبل مطالبتهم بحظوظهم منه، وذلك اتباعًا لهدي النبي – صلى الله عليه وسلم – في التربية الذي أشار إليه بقوله: «تُؤَدُّونَ الحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ، وَتَسْأَلُونَ اللَّهَ الَّذِي لَكُمْ»[١]

* *

[١] – صحيح البخاري, كتاب: المناقب, باب: عَلاَمَاتِ النُّبُوَّةِ فِي الإِسْلاَمِ, رقم: ٣٦٠٣

المطلب الثالث: مقصد الإصلاح

المقصود بالإصلاح: في معاجم العربية أن الإصلاح نقيض الإفساد, والاستصلاح نقيض الاستفساد, وأصلح الشيء بمعنى أقامه, وأصلح الدابة: أحسن إليها فصلحت, وأصلح بينهما: أزال ما بينهما من عداوة, واستصلح الشيء: هيّئه للصلاح والصالح[1].

ومعاني: الإقامة والإزالة والإحسان والتهيئة التي دَلّ عليها الإصلاح في اللغة, ليست متعارضة, بل إن كلاً منها يشير إلى عنصر من عناصر الإصلاح, ومرحلة من مراحلة.

فالإصلاح يستلزم تهيئةً واستعدادًا, يتطلب ذلك الاستعداد إزالة ما لَحِق بالشيء من وجوه الفساد, بحيث يترتب على تلك الإزالة إقامة الشيء على الصالح والصلاح, ثم لا يزال هذا التعاهد بالإصلاح للشيء مستمرًا حتى ينتهي إلى أقصى ما يمكن أن يبلغه من درجات الإحسان والتجويد.

هذا ولا تبتعد دلالة الإصلاح الاصطلاحية في المجال الدعوي عن دلالته اللغوية كثيرًا, ذلك أن المقصود به هنا هو: الجهد المبذول والعين الساهرة على رقابة النشاط الإنساني العام, لعلاج ما أصابه من فساد واقع, والعمل على وقايته من الإفساد المتوقع. ومعنى هذا أن الإصلاح تقويم لما اعوجّ, وجبر لما كسر, وإيصال لما قطع, وترميم لما تهدّم, ثم هو مع ذلك عمل دؤوب لقطع الطريق أمام ما قد يعترض النشاط الإنساني من فساد في المستقبل.

موقع الإصلاح ومجالاته من دعوات الأنبياء

المتتبع لآيات القرآن الكريم يجد الإصلاح كان مقصدًا رئيسًا لدعوات الأنبياء جميعًا, وقد شملت دعواتهم الإصلاحية كل المجالات, وإن أعطى كُلٌّ منهم أولوية الإصلاح للمجال الذي مثّل تحديًا يعاني منه قومه آنذاك, وتنعكس عليهم آثار الفساد فيه.

ففي الإصلاح العقدي نجد نبي الله نوحًا – عليه السلام – يكافح الوثنية, ويقاوم الشرك ليلًا ونهارًا, سرًا وجهارًا, حتى استمر في هذا النضال ألف سنة إلا خمسين عامًا, يقيم خلالها الحجة على قومه بالحكمة, ويجادلهم بالتي هي أحسن, وهم يتواصون فيما بينهم بقولهم: **{وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا} [نوح: ٢٣]**. وقد استمروا على ذلك حتى كان من أمرهم وعاقبتهم ما حكاه القرآن في كثير من سوره, بل خصّ لذلك سورة مستقلة سميت باسم ذلك النبي المصلح, وهي سورة (نوح).

[1] – انظر: لسان العرب, لابن منظور، مادة:صلح, ج٢, ص,٥١٧

وفي الإصلاح السياسي واجه نبي الله إبراهيم – عليه السلام – النمرود الجبّار, الذي آتاه الله الملك فاغتر به وتكبر, حتى قال: **{أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ}**. فجادله إبراهيم بالحكمة, فلم يستجب ذلك النمرود حتى كانت عاقبته البهت والخسران. **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [البقرة: ٢٥٨]**. وفي نفس المجال السياسي جاهد نبي الله موسى, وأخوه هارون – عليهما السلام – لاستخلاص المستضعفين من يد فرعون الطاغية, الذي حكم فاستبد, وخاصم ففجر, حتى قال: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} **[النازعات: ٢٤]**. وقال لقومه: **{مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ}[غافر: ٢٩]**.

واجه هذان النبيان الكريمان ذلك الطاغية بعد أن كلفهما الله– تعالى– بقوله: **{اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى} [طه: ٤٣]**. فذهبا إليه يطلبان الخلاص للمستضعفين ويقولان: **{ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ } [الشعراء: ١٦، ١٧]**.

وفي المجال الاقتصادي جاء نبي الله شعيب – عليه السلام – لقوم بخسوا الكيل والميزان، وتصرفوا في مال الله على غير مراده، فقال لهم ذلك النبي الكريم: **{أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ } [الشعراء: ١٨١ – ١٨٣]**. ولما استهزءوا به قائلين: **{إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ}[هود: ٨٧]**, كان جوابه: **{إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [هود: ٨٨]**.

ولإصلاح الفساد الأخلاقي جاء نبي الله لوط – عليه السلام – ليواجه قومًا انتكست فيهم الفطرة حتى نزا الرجل منهم على أخيه, فاستنكر عليهم ذلك القبح قائلًا: **{أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ } [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]**.

وفي مجال الإصلاح الحضاري والعمراني جاء نبي الله هود– عليه السلام– ليواجه قومًا قد بلغوا في فنون العمارة والعمران ما بلغوا, وملكوا من القوة المادية ما ملكوا حتى اغتروا بذلك واستعملوا تلك القوة في البطش والجبروت, بعد أن اهدروا الموارد والثروات في الإنفاق على الترف والعبث, فقال لهم (هود) مستنكراً: **{أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ } [الشعراء: ١٢٨ – ١٣٠]**.

وكذلك جاء نبي الله صالح- عليه السلام- لقوم بلغوا في المجد الزراعي ما بلغوا, غير أنهم لم يشكروا نعمة الله عليهم، فأسرفوا وأفسدوا, فخاطبهم (صالحٌ) مستنكراً:**{أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ } [الشعراء: ١٤٦ - ١٤٩]**.بل كان مما قاله لهم: **{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ} [الشعراء: ١٥٠ - ١٥٢]**.

أمّا نبينا محمد ﷺ الذي جاء بالرسالة العامة, فقد عمل على الإصلاح في كل ميدان، وقاوم الفساد في كل اتجاه، إذ هو- صلى الله عليه وسلم- الذي عمل على إصلاح النفس الإنسانية من داخلها، وتعاهد الإنسان بالتربية والتهذيب، وهو الذي أمر بالإصلاح في مجال الأسرة، وكان مما جاء به في هذا:**{وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا} [النساء: ٣٥]**، وكذلك في مجال الوصية: **{فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [البقرة: ١٨٢]**.

وفي مجال الإصلاح المجتمعي اعتبرت دعوته أنه لا خير في كثير من السعي والنجوى إلا بالإصلاح بين الناس.**{لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا } [النساء: ١١٤]**.

حتى في إطار الاختلاف الحزبي والسياسي قد أوجبت دعوته – صلى الله عليه وسلم- التدخل للصلح والفصل بين المتخاصمين.**{وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } [الحجرات: ٩]**.

وهكذا من يتتبع آيات القرآن الكريم، ويستقرئ مواقف الرسول- صلى الله عليه وسلم-, ويرى كيف أنه حتى مجال العلاقات الدولية، لم يدعه الرسول – صلى الله عليه وسلم – دون أن يعمل على إصلاحه، بالدعوة لصناعة سلام عام, بعد اجتهاد لسد منافذ الحروب وأبواب الاقتتال، خاصة وهو الذي كان يبعث بالكتب والرسائل, ويرسل السفراء لملوك العالم ورؤسائه لتحقيق ذلك الإصلاح، مَنْ يستحضر هذا وغيره يدرك كيف أن الإصلاح والعمل على مقاومة الفساد هو شيء رئيس من جوهر الإسلام، وحقيقة دعوته الخالدة.

أمران مهمان لمقصد الإصلاح الدعوي: الإصلاح المنوط بالدعوة والدعاة يستلزم أمرين مهمين, يرتبط كل منهما بالآخر ارتباطًا وثيقًا, أولهما: الذاتية الثابتة, وثانيهما: المعايير الحاكمة.

أولًا: **الذاتية الثابتة**، والقصد بها ضرورة الحفاظ على هوية الدعوة ومبادئها, وعدم السماح بتطويعها, للأغراض الذاتية, أو تسخيرها للأهواء الشخصية.

فالأصل في الدعوة أن تكون مُوجِّهة لا مُوجَّهة, متبوعة لا تابعة؛ ولذلك كان تطويعها أو تسخيرها مما يفقدها قيمتها كرسالة ربانية إصلاحية, تتضمن مبادئ ثابتة يمايز الناس على أساسها بين الخير والشر, والحق والباطل. كما أن التطويع هذا يحوّل الإسلام إلى إسلامات, والدعوة إلى دعوات, يختلف كل إسلام منها باختلاف أهواء المطوّعين له, وتتباين كل دعوة منها بتباين المدجّنين لها.

وكم حذّر القرآن الكريم من خطورة التنازل عن شيء من ثوابت الدعوة, أو تلوينها لحساب أحد، يقول تعالى:{**وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ**}[**الحجرات:٧**]

كما بين القرآن الكريم خطورة مجاراة الحق للباطل وتلبسه به؛ لما قد يفضي إليه ذلك من فسادٍ للعالم العلوي والسفلي على السواء، فقال سبحانه: {**وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ** } [**المؤمنون: ٧١**].

وكم دُعي الرسول – صلى الله عليه وسلم – ليتنازل عن شيء من ثوابت دعوته, فكان الجواب: {**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)**}[**الكافرون:١-٦**].

ثانياً: **المعايير الحاكمة**، ويُقصد بها أن الدعوة لكونها إصلاحية في أساسها قد اشتملت على معايير حاكمة لا تتغير بتغير الزمان والمكان, على ضوء تلك المعايير يتمايز الحق من الباطل, والصلاح من الفساد.

فالمعيار الذي تتحاكم إليه الدعوة في مجال الإصلاح العقدي هو التوحيد, ومعيارها في ميدان الاقتصاد هو العدالة, وفي عالم الاجتماع هو الأخوة الإنسانية, وفي مجال الأخلاق هو الفضيلة, وفي ساحة السياسة هو الحرية, وفي شئون الإدارة هو الشورى, كما أن معيارها في المدنية هو فعل الخير.

فمتى حل الشرك محل التوحيد, أو توارت الشورى لأجل التسلط, أو انزوت العدالة الاجتماعية لصالح الاحتكار والطبقية, أو سادت العنصرية الجاهلية بديلًا عن الأخوة

الإنسانية, أو انتشرت الرذيلة على حساب الفضيلة, أو قام الهوى مقام العقل والحكمة... متى حصل شيء من ذلك كان هذا هو الفساد الذي وجب كشفه, وبذل الجهد في إصلاحه بالحكمة والموعظة الحسنة.

فالشرك في العقيدة فساد، { **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}[الأنبياء: ٢٢]**. والهوى في الفكر فساد، {**وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ} [المؤمنون: ٧١]**. والعنصرية في الاجتماع فساد ،{ **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ } [محمد: ٢٢]**. والتسلط في السياسة والإدارة فساد:،{**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [القصص: ٤]**. والتخريب للعامر من الحرث والنسل فساد، {**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ } [البقرة: ٢٠٤، ٢٠٥]**.

إذًا هي معايير حاكمة في طريق الإصلاح بالدعوة, لا ينبغي أن تتلون تلك المعايير, أو تُطوع, أو تتصالح مع أي شكل من أشكال الفساد, وإلا فقدت قيمتها كدعوة ربانية خالدة أتت للإصلاح قصدًا.

أهمية الإصلاح: دعوة الإسلام للإصلاح ومقاومة الفساد، دعوة مُبَكِّرَة، ربما لم يدرك الناس قيمتها من قبلُ إدراكهم لها الآن؛ ذلك بعد أن خيم الفساد وألقى بظلاله على كثير من المجالات الإنسانية، مما استلزم قيام جمعيات وحركات إصلاحية في ربوع العالم, يستهدف كل منها الإصلاح في مجال من المجالات العامة، بما في ذلك السياسية الدولية؛ لإصلاح نظامها العالمي الجديد الذي يكيل بمكيالين مختلفين، ويزن بصاعين متباينين.

والذي يستحضر كيف أن الإسلام اعتبر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(وهما جوهر الإصلاح) فريضة تمتاز بها أمة الإسلام عن غيرها{**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } [آل عمران: ١١٠]**، ويستحضر مع ذلك دعوة الإسلام للإصلاح، والتحريض على مقاومة الفساد والمفسدين، وبيان عاقبة المصلحين، ومآل الفساد والمفسدين، مَنْ يستحضر هذا يدرك موقع الإصلاح من جوهر دعوة الإسلام، ويستشعر مع ذلك ضرورة وجود المصلحين.

لقد قرر الإسلام أن الاجتماع الإنساني وبقاءه مرهون بمقاومة المصلحين للمفسدين، وصدهم عن التخريب. قال تعالى:{**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** } **[البقرة: ٢٥١]**.

كما اعتبر الإسلام ترك الساحة لأهل الأهواء يفعلون ما يشاءون بمصالح البشرية دون مقاومة سبيلًا للشر الكبير، والفساد العريض. قال تعالى:{**وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ**} **[المؤمنون: ٧١]**.

وكم حرّض القرآن أهل الخير والصلاح أن ينهضوا بواجبهم في الإصلاح ومقاومة الفساد، وإلا حاق الخراب والدمار بالجميع. وفي ذلك يقول جل شأنه: { **فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ**} **[هود: ١١٦]**. ويقول سبحانه: { **لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** } **[المائدة: ٦٣]**. ثم إنه وصف الذين حاق بهم العذاب واللعنة بأنهم{**كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**} **[المائدة: ٧٩]**.

ولقد أوجب الإسلام على أهل الصلاح أن يُلزموا أهل الفساد بالعذر، ويسقطوا من أيديهم الاحتجاج بالجهل، فقال سبحانه: {**وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**} **[الأعراف: ١٦٤]**.

ولما كانت عادة المصلحين أن يكونوا قلة بين الناس، فقد وعدهم رسول الله– صلى الله عليه وسلم– بالمنزلة الحسنى عند الله تعالى، جزاء صبرهم، واحتمالهم ما يصيبهم من تبعات الإصلاح، والشعور بالغربة في زمن الفساد. حتى إنه قال– صلى الله عليه وسلم –: «إِنَّ الدِّينَ بَدَأَ غَرِيبًا وَيَرْجِعُ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي».[١]

محاور بين يدي الدعاة لتحقيق مقصد الإصلاح:

١– ضرورة الدراسة الجيدة للواقع, القريب منه والبعيد, والتزام الموضوعية والعلمية في تقييمه وتحليله, بعيدًا عن الأحكام الارتجالية والعاطفية؛ ذلك أن فهم الواقع ودراسته الموضوعية هو السبيل لواقعية المشاريع الإصلاحية, وقابليتها للتطبيق.

[١] – سنن الترمذي, أبواب: الإيمان، باب: مَا جَاءَ أَنَّ الإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا, رقم: ٢٦٣٠

٢- مراعاة التدرج في علاج الفساد وإصلاحه, مخافة أن يُحمل الناس على الحق جملة فيدعونه جملةً، كما قال سيدنا عمر بن عبد العزيز. على ألا يكون القول بالتدرج ذريعة لتمادي المفسدين في غيهم, أو تقاعس الدعاة عن واجبهم, وهو ما يستلزم وضع البرامج الإصلاحية في إطارها الزمني المحدد لتنفيذها.

٣- إعلاء شأن فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر, فهي شرط خيرية الأمة الإسلامية, وصمام أمانها, وضرورة بقائها.

٤- الكشف عن سمات المفسدين التي أوردها القرآن الكريم, والتحذير من الركون إليهم أو الرضا بصنيعهم.

٥- استحضار الرؤية العالمية الكوكبية في العمل للإصلاح والدعوة إليه, والاهتمام بشأن الأسرة الإنسانية ككل, فليست رسالة الإسلام محلية أو إقليمية, وإنما هي رسالة عالمية, موضوعها الإنسان باعتباره إنسانًا, دون النظر لجنسه أو عرقه.

٦- الاجتهاد في وضع البرامج الكلية والرؤى العامة للإصلاح في شتى المناحي, طبقًا للرؤية الإسلامية. وليس هناك مانع من الإفادة من الجهود الإنسانية التي قدمت في هذا المجال, مما اهتدت إليه الفطرة السوية, أو قضى به العقل الرشيد, خاصة والإسلام في أصله دين الفطرة والعقل, كما أن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها.

٧- تعزيز الشعور بمبدأ المسئولية الإصلاحية, والتي ربما تبدأ من إماطة الأذى عن الطريق، حتى تنتهي بالجهاد بالأموال والأرواح في سبيل الله.

٨- تزكية دور الدعاة والمصلحين, وإبراز أدوارهم الإصلاحية في الميادين المختلفة؛ لنقدم بذلك نماذج للاقتداء من داخل الحقل الإسلامي, مما يعتز به شبابنا, خاصة في تلك الفترة التي كاد أن يُدفع فيها الشباب دفعًا للاقتداء بغير أهل الهدى، والسير في ركاب أهل الردى.

٩- الاهتمام بعلوم التخطيط والإدارة, وكذلك علم المستقبليات وإدارة الأزمات, إذ الاهتمام بهذه العلوم مما يزيد الدعاة فاعلية في التأثير, ومصداقية في الطرح, وواقعية في البرامج والمشاريع الإصلاحية.

******

المطلب الرابع: مقصد الإخاء والسلام العالمي

المقصود بالسلام: يرد السلام في اللغة للدلالة على: السلامة، والاستسلام. وهو الاسم من التسليم. والسلامة من المرض البراءة منه. ومسالمة العدو: أخذه بالسلْم. وفلان سلِم لفلان وحرب له.[1]

وهذه الدلالة اللغوية في مجملها تنتظم مستويين من مجالات السلام: السلام النفسي بما يترتب عليه من شعور بالانسجام الداخلي، والإحساس بالرضا والسعادة، وخلو النفس من مشاعر الخوف والرهبة. والسلام السياسي بما يمثله من وجود علاقة بين دولتين أو أكثر، مشروط في تلك العلاقة عدم اعتداء واحدة من تلك الدول على الأخرى، أو سعيها لإلحاق الضرر بها.

ومهما يكن من شيء فإن السلام الذي نقصده في هذا السياق هو أعم من كونه مجرد شعور نفسي عارض، لقليل من الأفراد أو كثير، كما هو أشمل من كونه فعلًا سياسيًا يستهدف تجنب إقامة الحرب بين دولتين أو أكثر، وإنما هو حالة من الشعور بالأمن تغمر حياة المجتمع البشري في جوانبها المختلفة: النفسية، والاجتماعية، والسياسية. إنه روح يجب أن تسري في كيان الفكر الإنساني؛ لينبعث منها رؤية تشريعية وثقافية يتحقق بها التصالح الدائم والأمن المطرد، بديلًا عن ثقافة الصراع، بما ترتب عليها من حروب وويلات بين أبناء الأسرة الإنسانية العامة.

وإنما قرنتُ بين الإخاء والسلام؛ لئلا يكون الدافع إلى ذلك السلام هو المصلحة المادية وحدها، تلك المصلحة التي تجد البشرية نفسها مضطرة إليها بعدما طالعت وتطالع ما يصيبها من ويلات الحروب، ومخلفات العنصريات، بل لينضم إلى رابط المصلحة المادي ذلك الرابط الوجداني القائم على الشعور بالأخوة الإنسانية العامة، وما ينبثق عنه من معاني العطف والرحمة والعدل، خاصة وأن ذلك الرابط الوجداني هو صمّام الأمان في حراسة تلك المصلحة المادية حتى لا تفضي بأصحابها إلى الأثرة وتحقيق الأطماع من ناحية، كما أنه

[1] – انظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري (ت٣٩٨هـ)، ج٥، ص١٩٥١، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطا. وكذلك: أساس البلاغة للزمخشري (ت٥٣٨هـ)، ج١،ص٤٧١، ط١، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، علم ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

هو المعبر الحقيقي عن جوهر الإنسان وتميزه بذلك الجانب الروحاني المشرق عن سائر المخلوقات من ناحية أخرى؛ تلك المخلوقات التي يكفي في انتظام أمرها، وإشباع حاجاتها اعتمادها على الروابط المادية وحدها، دون حاجتها إلى ذلك الوازع الوجداني الشعوري المعبر عن الإرادة الحقيقية، والاختيار الحرّ لذلك الإنسان الكريم على الله.

فلسفة الصراع في الفكر البشري قديماً وحديثاً: الصراع الاجتماعي دائمًا ما يكون حصيلة الصراع الفكري، ولا يُتصور وجود صراع على الارض دون أن يسبقه صراع في العقل، يستند إليه ذلك الصراع المادي، ويقوم على أساسه.

ومن أراد أن يدرك قيمة دعوة الإسلام للإخاء الإنساني والسلام العالمي فعليه أن يستحضر تلك الفلسفة الفكرية القائمة على الصراع عبر تاريخ البشرية قديمًا وحديثًا، ذلك الفكر الصراعي الذي اتسعت دائرته حتى طالت المجالات الحياتية المختلفة.

ففي مجال الوجود – مثلًا – نجد الصراع واضحًا في حديث الفلسفة اليونانية وأساطيرها عن عن (صراع الآلهة)، وفي المجال الديني نجد الصراع القائم بين اليهود والنصارى لدرجة تآمر اليهود على قتل المسيح عليه السلام، واتهام كل من الفريقين للآخر بأنه ليس على شيء، وفي مجال الاجتماع تأتي فلسفة هيجل (١٧٧٠-١٨٣١م) وتصويره للحياه باعتبارها صراعًا مستمرًا بين الشيء وضده: الخير والشر، القبح والجمال، وكذلك يأتي داروين (١٨٠٩-١٨٢٢م) ليؤصل لنظرية تنازع البقاء والبقاء للأقوى، ثم يأتي على إثره نيتشا (١٨٤٤-١٩٠٠م) ليعلن عن (موت الإله)، ومتحدثًا عن الإنسان الوحش الذي لا يكترث بالضعفاء، وفي المجال الاقتصادي يطالعنا ماركس (١٨١٨-١٨٨٣م) بحديثه عن الصراع بين طبقة (البروليتاريا) العمّال والفلاحين والطبقة (البرجوازية) أصحاب رأس المال، وفي المجال الحضاري والثقافي يصدمنا فوكوياما بحديثه عن (نهاية التاريخ) وكذلك يأتي (صمويل هنتنجتون) ليبشر بصدام الحضارات[١] إلى آخر هذه السلسلة التي تدلّك على هذا

[١] – راجع: الحوار منهجًا وثقافة دكتور إسماعيل سعيد علي، وموسوعة تاريخ الأفكار دكتورة ميرفت عبد الناصر، ومختصر تاريخ الفلسفة، نايجل واربورتون.

النمط من الفكر التشاؤمي الذي لا يثمر إلا قلقًا في النفس، و صراعًا في الاجتماع، وبهذا ندرك قيمة وأهمية دعوة الإسلام للإخاء والسلام العالمي، لاسيما في إطاره الاجتماعي.

ففي الإسلام لا مجال لصدام الحضارات، بل فيه دعوة حارة لاستبقاء التنوع الثقافي، واعتباره وسيلة للتكامل، وسببًا لتحريض كل مجموعة بشرية للقيام بواجبها تجاه الأسرة الإنسانية الكبيرة. وفي ذلك يقول سبحانه: { **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}** **[الحجرات: ١٣].**

وفي الإسلام لا موقع لصراع العنصريات البغيض؛ ذلك أن الناس كلهم في نظر الإسلام أخوة، تجمعهم رابطة بشرية واحدة، إذ كلهم لآدم وآدم من تراب، وهو ما يمتنع معه التفاضل بين الناس على أساس من عرق، أو لون، أو لغة، ولم يجعل بين الناس سبيلًا للتفاضل سوى الهدى والعمل الصالح. فالإسلام يقول: **{يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء: ١].** ورسول الإسلام هو الذي قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى أَبَلَّغْتُ»[١]

السلام في بعده العالمي (سلام العالم والحياة): ومما يعزز حرص الإسلام كذلك على تحقيق السلام في إطاره الاجتماعي العام أمور، منها:

١- سبق الإسلام بفكرة الدعوة للعالمية، لما تستتبعه تلك الدعوة من ضرورة التعاون الإنساني العام في إطار من التشريعات والقوانين الكلية التي ينعم في ظلها الناس أجمعون بالأمن والاستقرار، دون تمييز على أساس من عرق، أو لغة.

١- مسند الإمام أحمد بن حنبل، حديث رجل من أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – رقم: ٢٣٤٨٩

ولئن كانت فكرة العالمية كانت مستغربة يوم أن دعا إليها الإسلام في أيامه الأولى، نظرًا لما كان مستقرًا في بنية الفكر الإنساني من استحالة إقامة التجمعات والتكتلات البشرية العامة على غير أساس عرقي أو ديني من ناحية، ولما كان ظاهرًا من اختلاف بين فكرة العالمية وما يعيشه الإسلام من ضعف ومهاجمة اضطر معها أصحابه إلى ترك بلادهم الأولى من جهة أخرى، لئن استغربت الإنسانية تلك الدعوة في أيامها الأولى فلقد أدرك العالم اليوم قيمتها، ووجد نفسه في طريقه إليها ولو على غير خيار منه، خاصة بعد أن اشتبكت المصالح بين دوله، وقرّبت وسائل الاتصال المسافات بين أهله، حتى جعلت منه قرية صغيرة، لا يصيب جزءًا منها شيءٌ إلا وانعكس على بقية أطرافها سلبًا أو إيجابًا.

ولقد كانت النداءات التي تحمل طابع العالمية في القرآن الكريم مثلًا تمثل ثورة على الفكر العالمي عمومًا، والفكر العربي خصوصًا، ذلك أنها صادفت العرب وهم غارقون في العنصرية يحترقون بنارها، كما صادفت أهم القوى العالمية والحروب بينها على أشدها، لا سيما بين الفرس والروم.

ففي ظل هذه الأجواء كان الإسلام يدعو بمثل هذه النداءات بما تحمله من مضامين إنسانية:{ **يَاأَيُّهَا النَّاسُ} [البقرة: ٢١]، { يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ} [الانفطار: ٦]، {يَاأَهْلَ الْكِتَابِ}[آل عمران: ٦٤]، { يَابَنِي آدَمَ} [الأعراف: ٣٥].**

٢- مناداة الإسلام لأهل الأديان السماوية أن تتحد كلمتهم مع الإسلام لصيانة كرامة الإنسان، وحمايته من العبودية، والتصدي لكل أشكال العدوان، وهي الدعوة التي لا يزال الإسلام يطلقها، وسيظل إلى أن ينعم الناس في ظلها بالأمن، وفي ذلك يقول الله تعالى:{ **قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } [آل عمران: ٦٤].**

وختام الآية يشير إلى أن الإسلام ماضٍ في طريقه لتحقيق ذلك السلام، ولو لم يستجب الآخرون لندائه، لا يثنيه عن ذلك شيء.

٣- سعي الإسلام العملي لتعاون دولي عادل، وتنظيم علاقات خارجية قائمة على التفاهم، ونبذ الخلاف المفضي للتحارب والتنازع، ولعل من أهم الدلائل على ذلك:

أ- صلح الحديبية الذي أمضاه الإسلام مع أكبر قوة كانت تنازعه وتخاصمه في أيامه الأولى، وإصراره على إبرام ذلك الصلح، وإن بدا للبعض أن به إجحافًا وظلمًا للطرف الإسلامي، وقد نجح الإسلام في إبرام اتفاقية مع تلك القوة الوثنية تنص على التصالح بين

الفريقين لمدة عشر سنوات، وهو الصلح الذي سماه القرآن بالفتح المبين حين قال: {**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا**} [الفتح: ١].

ب- الكتب الذي أرسلها رسول الإسلام لملوك العالم ورؤسائه، والتي استهدفت التعاون، وإتاحة الفرصة لسماع كلمة الإسلام لا غير، بحيث لو استمع إليه الناس ولم يؤمنوا به فلا شيء يلزمهم، ولا سلطان للإسلام عليهم ، وأقصى ما يريده ممن رفضوه أن يدعوه وشأنه، وأن يسالموا أهله.

ولقد لمسنا في رسائله- صلى الله عليه وسلم- لهؤلاء الملوك كامل التقدير لذواتهم حتى إنه ليدعوا حاكم الفرس بالملك فيقول:" إلى كسرى ملك الفرس"، وحاكم الروم بالعظيم ويقول: " إلى هرقل عظيم الروم" كما يدعو المقوقس بـ: " عظيم القبط". !

وهذه الدعوات إنما كانت تشكل سعيًا مبكرًا لإنشاء علاقات دولية أساسها اعتراف كلٍّ بالآخر، والرغبة في التعاون العام لتحقيق السلم والأمن الإنساني العام. ولعلنا في هذا السياق لا ننسى الوثيقة النبوية الشريفة التي نصّت على علاقة الإسلام باليهود في المدينة، والتي اعتبرتهم شركاء الوطن، وأنهم مع المسلمين أمة، يدافعون معًا عن دولة المدينة، وينتفعون بخيراتها سويًا.

خصائص السلام العالمي الذي يدعو إليه الإسلام: مما تجدر الإشارة إليه أن السلام العالمي الذي يدعو إليه الإسلام يمتاز بسمات عامة، من أهمها:

١- ارتكاز ذلك السلام على عامله الوجداني الفطري، دون الاكتفاء بالنظر للعامل الخارجي بما يمثله من تحقيق للمصلحة المادية الظاهرة، بل لقد اعتبر الإسلام ذلك العامل الوجداني- المتمثل في الشعور بالإخاء الإنساني، والمحبة الفطرية للعدل والرحمة- صمام أمان لاستمرار ذلك السلام وبقائه، ومادة لإطفاء حرائق الخلافات حين تبلغ ذروة اشتعالها بين المتنازعين.

٢- أنه سلام لا يقوم على أنقاض الدين، بل هو سلام ينشأ في رحابه، وتحت مظلته، وليس الأمر كما يظن البعض أن شرط تحقيق السلام هو استبعاد الأديان والتخلي عنها، زاعماً غناء المبادئ الإنسانية المجردة عن تلك الأديان، بل معتبراً إياها السبب الرئيس في الصراع والحروب، وقد نسي هؤلاء في غمرة خصومهم للدين أن تلك المبادئ والقيم الإنسانية التي يتحدثون عنها لا يمكن حمايتها إلا في ظلال الدين المبرأ عن الهوى والحزبية؛ وإلا فكم من بلاد دمّرت على رءوس أهلها، وكم من شعوب استباح الأقوياء أوطانها باسم تحقيق الديموقراطية، والحرية، والتنوير... وغيرها من تلك الشعارات التي صارت ستائر تتخفى خلفها أغراض مشاريع الهيمنة والاستعمار.

وأمارة صدق الإسلام في تحقيق سلام عالمي في رحاب الدين دون التخلي عنه أنه دائمًا ما يستنهض أهل الأديان للتعاون على تحقيق السلام وصيانته, وقد سبقت إشارة القرآن إلى دعوة أهل الكتاب في هذا السياق، كما أنه الإسلام الذي احترم الخصوصية الدينية لليهود وهو يُمْضي معهم اتفاقًا مكتوبًا لتحقيق الأمن والاستقرار داخل دولة الإسلام الجديدة بقوله – صلى الله عليه وسلم –:" إن اليهود مع المؤمنين أمة، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم". وما كانت دعوة الإسلام لتحقيق ذلك السلام في رحاب الدين إلا إيمانًا منه بأن الأديان جميعها لم تأت إلا بالرحمة والإخاء؛ لأنها من ربٍ عادلٍ رحيمٍ.

٣- أنه سلام يستهدفه الإسلام كغاية ثابتة، وليس كاستراتيجية تتغير تبعًا لتغير المصالح، إنه سلام نابع من روح الإسلام، ناشئ عن جوهره وطبيعته، وليس سلامًا تمليه ظروف الضعف مثلاً، فإذا ما عاش الإسلام ساعات القوة تنكر لذلك السلام وجاوزه.

ولقد كان من تجليات ذلك الإيمان بضرورة السلام تجاوز الإسلام مرحلة التسامح مع الآخر إلى مرحلة الاعتراف به؛ ذلك أن التسامح كما يرى البعض " يظل دائما وضعًا مؤقتًا وغير ملزم، لأنه في أساسه وضع سلبي"[١]

إن الاعتراف بالآخر هو ما يحمل على احترام خصوصياته الثقافية، وعاداته الحضارية، وعقائده الدينية، مع الإيمان بوجود مساحات ومجالات للتعاون المشترك بين الجميع.

وبعد: فقد استدار الزمان كهيئته يوم أن كانت البشرية قبل الإسلام تعاني آثار الصراع العقدي، والعنصري، والطبقي إلى أن جاء الإسلام بقارورة الدواء لذلك الداء العضال، وجمع الناس تحت راية واحدة يتساوى في ظلالها الأسود والأبيض، ويتآخى في رحابها العربي وغيره، وظل الأمر كذلك إلى أن انتكست البشرية على عقبيها مرة أخرى، حتى عادت تمزق أوصالها الحروب، وتشتت شملها مشاريع الهيمنة والاستعمار، وتأتي العنصريات على ما تبقى في نفوسها من نوازع الرحمة والخير، وهو الأمر الذي يُحتم على دعاة الإسلام أن ينهضوا بعبء دعوة العالم مرة أخرى لقيم الإسلام الداعمة لتحقيق السلام، كبديل عن قيم الحضارة المعاصرة التي اصطلى العالم بنارها، تلك الحضارة التي استعملت قوتها التي انتهت إليها في البطش، واستغلت علمها الذي حققته لنشر الإلحاد، وانتهت بالحرية التي اكتسبتها إلى الفوضى، وآل أمرها بالفنون التي استحدثتها إلى الفجور وإثارة الشهوات.

[١]- عوائق النهضة الإسلامية، على عزت بيجوفيتش، ص٨٢، طبعة أولى ١٤١٧هـ ، ١٩٩٧م (بدون)

الفرصة سانحة اليوم ليتقدم دعاة الإسلام إلى البشرية لإنقاذها بهدي الإسلام الرباني؛ لتنعم في ظله بالأمن والسعادة، ذلك الدين الذي يتخذ من القوة وسيلة لتحقيق العدل، ومن العلم باباً للهداية والإيمان، ومن الحرية سبيلًا لصيانة الكرامة، ومن الثقافة دعامة لتهذيب الأخلاق، ومن الفن ركيزة لتنمية الوجدان ورقة الشعور، ومن التنوع الحضاري دليلًا للتعارف والتكامل بين أفراد الأسرة الإنسانية... إلى غير ذلك مما تعتمده دعوة الإسلام من وسائط لتحقيق الإخاء الإنساني العام، والسلام العالمي المنشود.

محاور بين يدي الدعاة لتحقيق مقصد الإخاء السلام العالمي

ومما يمكن للدعاة أن يسترشدوا به من عناصر في سعيهم للتحقيق مقصد السلام العالمي ما يلي[1]:

١- إبراز الجوانب الحضارية من فقه العلاقات الدولية، وأخلاق الدبلوماسية السياسية في الإسلام .

٢- تبرئة الأديان من دعوتها للصراع، ورفض استغلالها في النزاعات السياسية لتحقيق مشاريع الهيمنة والاستعمار.

٣- مجابهة التطرف الديني من أية جهة، والتصدي لدعواته وأطروحاته بالحجة والبرهان.

٤- تعميق التعاون على أصول المشتركات الدينية التي دعت إليها الرسالات السماوية، وهو ما يستلزم تعزيز البناء على ما تم من ثمار حوارات الأديان، شريطة الأمانة والصراحة في عرض ما لهذه الحوارات من إيجابيات، وما عليها من مآخذ وسلبيات.

٥- الكشف عن تقاليد الإسلام المستقرة في إيجابه مساندة الشعوب المستضعفة، وتقرير حقها في تقرير مصيرها، وسيادتها الوطنية، ومحاربة مستعمريها وغزاتها.

٦- إبراز ما قرره الإسلام من حقوق للأقليات، وفقه المواطنة عموما بما يستبين معه سبق الإسلام في تقريره للمساواة في الحقوق والواجبات بين أفراد الوطن الواحد.

٧- التصدي للفكر الإلحادي بالحجة والدليل؛ لما له من آثار سلبية على الأخلاق، وتهديد ما أتت به الرسالات السماوية من قيم وهدايات بشكل عام.

٨- الكشف عن مثالب الاحتكار الاقتصادي في بعده العالمي، وبيان مخاطره على استقرار الجماعة البشرية، وتهديد سلمها العام.

---

[1] - عالجت كثيراً من هذه العناصر في بحث مستقلٍ عنونته بـ " مرتكزات الإخاء والسلام العالمي في الإسلام ".

٩- التصدي للفكر العنصري، وما انبنى عليه من نظريات تفضي إلى الصراع الحضاري، والعرقي.

١٠- إعطاء أولوية لإنشاء إعلام وإذاعة إسلامية لمجابهة إعلام الكراهية وثقافة العنف العالمي.

١١- اهتمام الدعاة ببيان واجبات الإنسان تجاه البيئة، والكشف عما يمكن أن يقوم به من أدوار لعلاج آثار ذلك التغير المناخي الذي أصبح يهدد كل ما قدمته الإنسانية من إنجاز حضاري عبر تاريخها الطويل، خاصة وقد بات واضحًا للجميع ما خلفه ذلك التغير المناخي من حرائق للأشجار والغابات، وثلوج تتراكم على سطح البحار والمحيطات، وانقراضٍ لبعض الحيوانات والنباتات... إلى آخر تلك الآثار التي تستوجب الاتحاد العالمي والتعاون الإنساني العام.

١٢- الانتباه لما ورد من نصوص دينية ذات تعلق بالتعامل مع المخالف في الدين وضرورة التفريق بين ما كان منها مرتبطًا بعلته وظرفه التاريخي، وبين ما جاء منها ليمثل قاعدة ثابتة ومبدأً مستقرًا في علاقة الإسلام بالآخر؛ ليدرك الدعاة على ضوء هذا التفريق أن الأصل في العلاقة بالمخالف في الدين هي السلم، وطلب التعاون على المصالح الإنسانية المشتركة، واحترام حقوق الآخر وهويته الدينية والثقافية والحضارية في إطار من التنوع البشري الذي أراده الله لخلقه، وأن ما بدا مخالفًا لتلك القاعدة المستقرة من نصوص جزئية فإنما أملته ظروف السياسة الشرعية المتغيرة، وما كان يمثل إلا إجراءً وقتيًا يستهدف تحقيق هدفٍ مرحليٍ خاصٍ مرتبطٍ بأسبابه، دون أن ينال ذلك من أصل القاعدة المستقرة بالإلغاء أو البطلان.

****

الخاتمة

أولًا: أهم نتائج البحث

١- للدعوة الإسلامية مقاصد تنفرد وتتميز بها عن مقاصد الشريعة الإسلامية بمعناها الاصطلاحي.

٢- الإحاطة بمقاصد الدعوة الإسلامية ضرورية لترشيد الخطاب الإسلامي، وتحديد أولوياته، وضبط مسيرته.

٣- الاحتكام لمقاصد الدعوة الإسلامية الكلية يقلل من مساحة الفجوة الحاصلة بين العاملين للإسلام، ويسهم في اتحاد كلمتهم والتئام صفهم.

٤- مقاصد الدعوة الإسلامية تُسهم فى إعطاء صورة كلية شاملة عن طبيعة الإسلام وجوهر رسالته التي يمتاز بها عن غيره من الرسالات والفلسفات والمذاهب.

٥- تتسم مقاصد الدعوة الإسلامية بالشمول والتوازن، حيث إنها مقاصد تنتظم شئون الفرد والجماعة، وتشمل مجال الروح والمادة، وتسع أمور الدنيا والآخرة، وتُعنى بضرورات الإنسان القاهرة، كما تُعنى بأشواقه الطائرة.

٦- أعطت مقاصد الدعوة الإسلامية أهمية للبعد العالمى والرؤية الإنسانية، فكشفت بذلك عن طبيعة عالمية الإسلام الخالدة، وصلاحية رسالته لكل زمان ومكان.

٧- عُنيت مقاصد الدعوة الإسلامية بالاجتماع الإنسانى والعمران البشري، واعتبرت وحدة الأمة الإسلامية ضرورة لذلك العمران، ودعامة لازمة لذلك الاجتماع الإنساني العالمي الفاضل.

٨- أفسحت المقاصد الدعوية المجال أمام دعاة الإسلام لتطوير الوسائل، وتجديد الآليات؛ حيث جاء النص على المبادئ العامة والأهداف الكلية دون التعرض بحديث مفصل عن الوسائل، نظرًا لتغيرها بتغير عصورها وظروفها، وهو ما يبرهن على مرونة الإسلام وفاعليته.

٩- اعتبار العلم مقصدًا رئيسًا من مقاصد الدعوة الإسلامية؛ كونه منهجًا ووسيلة لمعرفة الله تعالى من جهة، وسبيلًا لترقية النوع الإنساني وإصلاح عمراني من جهه ثانية.

١٠- أعطت المقاصد الدعوية أولوية خاصة لضرورة تزكية النوع الإنسانى، والاهتمام بتربيته، والعمل على إصلاحه بالفضائل، وذلك باعتبار صلاح الإنسان هو الأساس لكل إصلاح ونهوض.

ثانياً: أهم توصيات البحث

١- إفراد مادة مستقلة لتدريس مقاصد الدعوة الإسلامية بالكليات الشرعية بالأزهر الشريف، لاسيما كلية الدعوة الاسلامية.

٢- تخصيص دراسة تُعنى برصد الجهود التى بذلت – عبر التاريخ الفكري والدعوي – لوضع الأصول الفكرية التى تجمع كلمة العاملين للإسلام، وينتظم تحت مظلتها سعيهم، بدءًا من أبي الحسن الأشعري، وانتهاء بوثيقة الأزهر الشريف للتجديد.

٣- لعل كل مقصد من تلك المقاصد الدعوية يحتاج لأن يفرد ببحث مستقل يتناول بالتفصيل آليات تحقيق ذلك المقصد، وسبل التفاعل مع ما يستجد من شئون ذات صلة بموضوعه، مما يزيد من فقه الدعاة بالواقع، وتطوير خطابهم على أساسه.

* * * * * * * * * * *

قائمة بأهم المراجع

١. الأحكام السلطانية, أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، الناشر: دار الحديث – القاهرة،
٢. إحياء علوم الدين, الإمام أبو حامد محمد الغزالي (ت٥٠٥ هـ), دار الحديث بالقاهرة, ١٤١٩هـ \ ١٩٩٨م
٣. إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات, المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ، المحقق: جماعة من العلماء بإشراف الناشر, الناشر: دار الكتب العلمية – لبنان, الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م,
٤. إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، المحقق: الشيخ أحمد عزو عناية، دمشق – كفر بطنا، قدم له: الشيخ خليل الميس والدكتور ولي الدين صالح فرفور، الناشر: دار الكتاب العربي، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م
٥. الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجوفيتش، مؤسسة العلم الحديث – بيروت، الطبعة الأولى، رجب ١٤١٤هـ_١٩٩٤م.
٦. الإسلام بين العلم والمدنية, محمد عبده, دار المدى للثقافة والنشر ٢٠٠٢م, الطبعة الأولى ١٩٩٣م
٧. الإسلام دين عام خالد، محمد فريد وجدي،، هدية مجلة الأزهر لشهر ربيع الآخر ١٤٢٦هـ
٨. الأشباه والنظائر، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ – ١٩٩٠م،
٩. انظر: الوجود والحرية بين الفلسفة والأدب, د. محمد شبل الكومي, الهيئة المصرية للكتاب ٢٠١٠م الطبعة الأولى
١٠. البرهان في علوم القرآن، المؤلف: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦هـ – ١٩٥٧ م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه.
١١. تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)،صلة تاريخ الطبري

لعريب بن سعد القرطبي، (المتوفى: ٣٦٩هـ)، الناشر: دار التراث – بيروت، الطبعة: الثانية – ١٣٨٧هـ
١٢. التفكير فريضة إسلامية, عباس محمود العقاد, ص٢٢, دار القلم, الطبعة الأولى, بدون تاريخ
١٣. جامع البيان في تأويل القرآن, المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ), المحقق: أحمد محمد شاكر, الناشر: مؤسسة الرسالة, الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م
١٤. الجوهرة النيرة، أبو بكر بن علي بن محمد الحدادي العبادي الزَّبِيدِيّ اليمني الحنفي، (المتوفى: ٨٠٠هـ)، الناشر: المطبعة الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٣٢٢هـ
١٥. حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، عباس محمود العقاد، نهضة مصر للنشر، بدون طبعة
١٦. الحوار منهجًا وثقافة، د. سعيد إسماعيل على، ص١٥٦، طبعة أولى ٢٠٠٨م، دار السلام.
١٧. الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها، د. أحمد غلوش، ط دار الكتاب اللبناني، ط الثالثة.
١٨. الدعوة بين القصور النظري والعملي، د. عبد العزيز برغوث، بحث بمجلة التجديد الماليزية، العدد الثاني عشر، أغسطس ٢٠٠٢م
١٩. ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، المؤلف: عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (المتوفى: ٨٠٨هـ)، المحقق: خليل شحادة، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م.
٢٠. الذريعة إلى مكارم الشريعة، الشيخ: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ)، دار: اقرأ للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ٢٠٠١م-١٤٢٢هـ، تحقيق: محمود بيجو (بتصرف يسير).
٢١. رسالة المسترشدين, الحارث بن أسد المحاسبي، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٤٣هـ), المحقق: عبد الفتاح أبو غدة, الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب – سوريا, الطبعة: الثانية، ١٣٩١ – ١٩٧١
٢٢. رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا, تيسير جيوم دوفو, سلسة تيسير التراث, الهيئة المصرية للكتاب ٢٠١٧م, طبعة أولى

٢٣. روضة المحبين ونزهة المشتاقين, محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ), الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان, الطبعة: ١٤٠٣هـ/١٩٨٣ م
٢٤. السيرة النبوية لابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: ٢١٣هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الثانية، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م
٢٥. شرح العقائد النسفية, عمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل، أبو حفص، نجم الدين النسفي (المتوفى: ٥٣٧ هـ), الشارح: سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني الشافعي (المتوفى: ٧٩٣ هـ), المحقق: الدكتور الشيخ أحمَد حجازِى السقّا, الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة – مصر, الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨ م
٢٦. الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة,محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ),المحقق: علي بن محمد الدخيل الله, الناشر: دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية, الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ
٢٧. عوائق النهضة الإسلامية، على عزت بيجوفيتش، طبعة أولى ١٤١٧هـ ، ١٩٩٧م (بدون)
٢٨. الفلسفة القرآنية، عباس محمود العقاد، دار الهلال، ١٩٦٦م، بدون رقم.
٢٩. الفوائد, محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ), الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت, الطبعة: الثانية، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م
٣٠. في التعريب والتغريب, د, محمود فوزي المناوي,الهيئة المصرية للكتاب٢٠١٣م, بدون رقم
٣١. قانون التأويل، الإمام أبو حامد الغزالي ،الطبعة الأولى، بدون اسم، ١٤٣١٣هـ-١٩٩٣م، تحقيق: محمود بيجو.
٣٢. الكشف والبيان عن تفسير القرآن, أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفى: ٤٢٧هـ), تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور, مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي, الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان, الطبعة: الأولى ١٤٢٢، هـ - ٢٠٠٢ م
٣٣. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، علي أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الندوي (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، ، دار الجيل بيروت،١٤١١هـ_ ١٩٩١م، بدون رقم.

٣٤. مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية عام النشر: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م
٣٥. مختصر تاريخ الفلسفة، نايجل واربرتون، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م
٣٦. مختصر دستور الأخلاق في القرآن, د. محمد عبدالله دراز, ترجمة: محمد عبد العظيم علي, بدون طبعة وتاريخ
٣٧. المستصفى، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ) تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م
٣٨. معجم ألفاظ القرآن في علوم الحضارة, د. عثمان إسماعيل, الطبعة الأولى ١٩٩٤
٣٩. معجم مقاييس اللغة, أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ), المحقق: عبد السلام محمد هارون, الناشر: دار الفكر, عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م
٤٠. مفاتيح الغيب = التفسير الكبير, أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ), الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت, الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠هـ
٤١. المفردات في غريب القرآن, أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ), المحقق: صفوان عدنان الداودي, الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت, الطبعة: الأولى - ١٤١٢ هـ
٤٢. مقاصد الشريعة الإسلامية، الإمام محمد الطاهر بن عاشور، دار اسلام للطباعة والنشر، الطبعة الثامنة ١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م، ص٨
٤٣. مقومات الإسلام، الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر الشريف، هدية مجلة الأزهر شوال ١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م.
٤٤. الملل والنحل، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد الشهرستاني (المتوفى: ٥٤٨هـ)، الناشر: مؤسسة الحلبي.
٤٥. مهمة الإسلام في العالم، محمد فريد وجدي،هدية مجلة الأزهر المجانية لشهر صفر ١٤٣١هـ.

٤٦. الموافقات، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: ٧٩٠هـ)، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن عفان، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م
٤٧. موسوعة تاريخ الأفكار، د. مرفت عبد الناصر، الهيئة المصرية للكتاب، ٢٠١٧
٤٨. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم, محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي (المتوفى: بعد ١١٥٨هـ), تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم, تحقيق: د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي, الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني, الناشر: مكتبة لبنان ناشرون – بيروت, الطبعة: الأولى – ١٩٩٦م
٤٩. الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، طبعة وزارة الأوقاف المصرية القاهرة، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م

******

الفهرس

المقدمـــــة ١١

التمهيـــــــــد ١٥

المبحث الأول: المقاصد بين الشريعة والدعوة ١٨

المطلب الأول: اختلاف الدلالة الاصطلاحية بين الشريعة والدعوة وآثاره..... ١٩
المطلب الثاني: الاختلاف في تقدير الضروريات بين الشريعة والدعوة ٢٣
المطلب الثالث: الشريعة والدعوة بين الجانب القانوني والجانب التربوي ٢٥
المطلب الرابع: المقاصد بين شراكتها في الشريعة وتفردها في الدعوة. ٢٧

المبحث الثاني: المقاصد المعرفية للدعوة الإسلامية ٢٩

المطلب الأول: مقصد الهداية ٣٢
المطلب الثاني: مقصد العلم..... ٤٠

المبحث الثالث: المقاصد الوجدانية للدعوة الإسلامية ٤٦

المطلب الأول: مقصد التزكيـــــــة ٤٧
المطلب الثاني: مقصد العدل..... ٥٣
المطلب الثالث: مقصد الحرية ٦١
المطلب الرابع: مقصد التربية الجمالية..... ٦٧

المبحث الرابع: المقاصد الاجتماعية للدعوة الإسلامية ٧٣

المطلب الأول: مقصد وحدة الأمة..... ٧٣
المطلب الثاني: مقصد العمران..... ٨٠
المطلب الثالث: مقصد الإصلاح ٨٦
المطلب الرابع: مقصد الإخاء والسلام العالمي..... ٩٣

الخاتمة ١٠١

قائمة بأهم المراجع ١٠٣